سر الابتلاء

هارون يحيى

يقول الكاتب: ما الحياة الدنيا سوى اختبار انتقالي وفترة تدريبية وهبها الله سبحانه لكل إنسان ليكون مسئولا عن التدبر فيها للوصول إلى معرفة الله سبحانه. وإطاعة أوامره والعمل على كسب رضاه، والتحلى بالفضيلة والصبر ومبادئ الأخلاق في مواجهة أي طارئ قد يحدث له طالما بقي على وجه هذه الأرض، ولا يعرف السر العظيم لهذا الامتحان سوى المؤمنين. فالمؤمن على يقين أن كل شيء أدرج في الامتحان هو من قدر الله سبحانه ابتداء، ليقوى على مواجهة أي طارئ برباطة جأش كبيرة. فهؤلاء الذين أدركوا هذا السر وفقا لهذه الحقيقة الخفية الجلية في آن واحد، سينالون نعيما مقيما ما له من نفاد. وهذا الكتاب يميط اللثام عن هذه الحقائق لأولئك الذين يجهلون ذلك السر العظيم.

عادل محمد

إلى القراء الكرام

إن المواضيع الإيمانية الموجودة في جميع كتب المؤلف مشروحة وموضحة في ضوء الآيات القرآنية. وهذه الكتب تدعو الناس جميعا إلى فهم هذه الآيات والعيش وفقا لتعاليمها.
لقد تم شرح جميع المواضيع المتعلقة بآيات الله بحيث لا تبقى هناك أي شبهة أو تردد في ذهن القارئ. إن الأسلوب السلس والسهل والرصين المنبعث من القلب هو الذي يسر فهم هذه الكتب من قبل الجميع صغارا وكبارا، ومن كل فئات المجتمع، بسهولة ودون أي صعوبة، وهو الذي جعل هذه الكتب كتبا لا تستطيع أن تتركها قبل إتمام قراءتها. وحتى الذين اتخذوا موقفا معارضا للدين يتأثرون بالحقائق المذكورة في هذه الكتب، ولا يستطيعون دحض صحة محتوياتها.
وكما يستطيع القراء قراءة هذا الكتاب والكتب الأخرى للمؤلف على انفراد، فهم يستطيعون قراءتها بشكل جماعي، أو مناقشتها فيما بينهم والتسامر حولها. إن قراءة هذه الكتب بشكل جماعي ونقل كل فرد رأيه وخبرته إلى الآخرين أمر مفيد جدا. علاوة على هذا، فإن المساهمة في تعريف هذه الكتب - التي لم تؤلف إلا لوجه الله تعالى ولمرضاته - ونشرها بين الناس تعد خدمة إيمانية كبيرة، لأن الأدلة والبراهين التي يوردها المؤلف في هذه الكتب قوية جدا ومقنعة، لذا كان على كل من يريد خدمة هذا الدين تشويق الآخرين لقراءتها والاستفادة منها.
إننا نأمل أن يتسع وقت القارئ للاطلاع على استعراض الكتب الأخرى، الذي نقدمه في نهاية هذا الكتاب، ليكون على علم بوجود منابع ثرة ومصادر غنية من الكتب في المواضيع الإيمانية والسياسية، التي تعد قراءتها مفيدة وممتعة للغاية.
لا ترى في هذه الكتب ما تراه في بعض الكتب الأخرى من رؤى شخصية للمؤلف، ولا ترى شروحا وإيضاحات مستندة إلى مصادر مشبوهة، ولا أي نقص أو قصور في أسلوب الأدب والتوقير
الواجب اتخاذه تجاه المفاهيم والمواضيع المقدسة، ولا ما يجر القارئ إلى الحيرة والتردد أو إلى اليأس والقنوط.

تقديم

هذه الحياة الدنيا هي ميدان الاختبار الذي ينبغي لبني البشر أن يجتازوه ليحددوا أية حياة خلود سوف يحيونها في الآخرة فهذا الامتحان الذي يخضعون له في الحياة الدنيا سيؤهلهم لدخول الحياة السرمدية في الآخرة.
فما عليك والحال كذلك إلا اتباع رضوان الله عز وجل. وفي الحقيقة ما الحياة الدنيا سوى اختبار انتقالي وفترة تدريبية وهبها الله سبحانه لكل إنسان ليكون مسئولا عن التدبر فيها للوصول إلى معرفة الله سبحانه. وإطاعة أوامره والعمل على كسب رضاه، والتحلي بالفضيلة والصبر ومبادئ الأخلاق في مواجهة أي طارئ قد يحدث له طالما بقي على وجه هذه الأرض. ولا يعرف السر العظيم لهذا الامتحان سوى المؤمنين.
فالمؤمن على يقين أن كل شي، أدرج في الامتحان هو من قدر الله سبحانه ابتداء. ليقوى على مواجهة أي طارئ برباطة جأش كبيرة ، فهؤلاء الذين أدركوا هذا السر وفقا لهذه الحقيقة الخفية الجلية في أن واحد؛ سينالون نعيما مقيما ما له من نفاد.

حول الكاتب

ولد عدنان أوقطار عام ١٩٥٦، وهو يستعمل الاسم المستعار هارون يحيى . ومنذ الثمانينات من القرن الماضي كتب عددا كبيرا من المؤلفات في مواضيع مختلفة، إيمانية وعلمية وسياسية، إلى جانب دلك يوجد للكاتب مؤلفات في غاية الأهمية تكشف زيف اتباع نظرية التطور، وتفند ادعاءاتهم، وتفضح الصلات الخفية، بين الداروينية والأيديولوجيات .
وهدف المؤلف الرئيسي من وراء أعماله هو إيصال نور القرآن الكريم إلى شتى بقاع العالم، ودفع الناس بذلك إلى التفكير والتفكر في قضايا إيمانية أساسية مثل وجود الله تعالى ووحدانيته، واليوم الآخر، وكذلك كشف الأسس المتهاوية لنظم الجاحدين وسلوكياتهم المنحرفة وإلى حد الآن ترجم للكاتب نحو ٢٥٠ مؤلفا إلى 57 لغة مختلفة، وهي تحظى باهتمام بالغ من قبل شريحة واسعة من القراء. وبإذن الله تعالى سوف تكون كليات هارون يحيى خلال القرن الواحد والعشرين، وسيلة للبلوغ بالإنسان في شتى أنحاء العالم إلى مراتب السكينة والسلام والصدق والعدل والجمال والسعادة التي جاء التعريف بها في القرآن الكريم .

المقدمة

لا بد من وجود شيء في حياتك قد بذلت الوقت والجهد معا من أجل تحقيقه. تذكر مثلا عندما كنت طالبا في المدرسة وقد توالت عليك الامتحانات وذلك لإعدادك للانتساب لجامعة مجددة وفق اختيارك الشخصي.

يعتبر معظم الشباب هذه الامتحانات نقاط تحول في مسيرة حياتهم لأنها ستحدد شكل حياتهم القادمة. ويمضون السنين استعدادا لهذا الحدث. فيسهرون لياليهم، وتقل نشاطاتهم الخاصة وتتقلص إجازاتهم وأوقات مرحهم. ويظلون نتيجة تركيزهم الكلى لدخول الجامعة يتحلون بالصبر ويحدوهم الأمل حتى ينجزوا أهدافهم.

والآن تأمل معي في أناس كان أكبر همهم امتلاك منزل جميل ملائم. فلكي يمتلكوا بيت الأحلام هذا لا بد من توفر القدرة المالية لديهم لشرائه. لذا تراهم يصلون الليل بالنهار ليحصلوا على عمل ثم يأخذون بالترقي في المناصب العليا وينالون رواتب مرتفعة حين يصبحوا قادرين على شراء أو بناء بيت الأحلام، وذلك بعد انقضاء سنين من بذل الوقت والجهد. هذا مثال فقط من بين أناس اجتهدوا بتصميم ثابت ولسنين طويلة كي يتغلبوا على كل التحديات التي قد تقف حجر عثرة بينهم وبين تحقيق أغراضهم وأهدافهم التي أولوها هذه القيمة الكبيرة، وإذا حاول هؤلاء الناس بالإضافة، إلى ذلك المضي في عملية تحسين أوضاعهم المادية ومكانتهم الاجتماعية، ومزيد تلميع صورهم بين الناس فما عليهم إلا أن يبذلوا مزيدا من الجهود المضنية متغلبين على ما يعترضهم من صعوبات ... ومثلما يقال فقد "اقتطعوا جزءا من ذواتهم".

ولنتأمل معا الفكرة التالية: ما سبق من أمثلة يعبر عن الرغبات العابرة في هذه الحياة الدنيا والتي ستزول بموت الإنسان، أو قد تضيع فجأة نتيجة حادث طارئ. وهناك بعض الأمثلة الأخرى: شاب يعمل بمثابرة سنوات عديدة ليجتاز الامتحان ولكن للأسف قد يقضي نحبه حتى قبل دخول الامتحان. وهذا رجل لم يأل جهدا في سبيل شراء منزل مناسب، ولكن فجأة شب حريق في منزله فقضى على جميع آماله.

أكثر الرغبات الي نلهث وراءها في هذه الحياة الدنيا مهما بذلنا من مشقة في سبيل تحصيلها، ما هي إلا متع زائلة. ولكن هناك حياة أخرى حقيقية دائمة ذات طيبات خالدة حياة يزيد عطاؤها ولا ينفد حيث ينعم الإنسان فيها بالخلود إنها حياة ما بعد الموت، هي الحياة التي يبذل المؤمنون قصارى جهدهم للوصول إليها، ويعتبرونها أسمى أمانيهم وأهدافهم واضعينها على الدوام نصب أعينهم. لذا، فهذه الحياة الدنيا هي ميدان الاختبار الذي ينبغي لبني البشر أن يجتازوه ليحددوا أية حياة خلود سوف يحيونها في الآخرة، فهذا الامتحان الذي يخضعون له في الحياة الدنيا سيؤهلهم لدخول الحياة السرمدية في الآخرة، فما عليك والحال كذلك إلا اتباع رضوان الله عز وجل، وفي الحقيقة ما الحياة الدنيا سوى اختبار انتقالي وفترة تدريبية وهبها الله سبحانه لكل إنسان ليكون مسئولا عن التدبر فيها للوصول إلى معرفة الله سبحانه. وإطاعة أوامره والعمل على كسب رضاه، والتحلى بالفضيلة والصبر ومبادئ الأخلاق في مواجهة أي طارئ قد يحدث له طالما بقي على وجه هذه الأرض، ولا يعرف السر العظيم لهذا الامتحان سوى المؤمنين. فالمؤمن على يقين أن كل شيء أدرج في الامتحان هو من قدر الله سبحانه ابتداء، ليقوى على مواجهة أي طارئ برباطة جأش كبيرة.

فهؤلاء الذين أدركوا هذا السر وفقا لهذه الحقيقة الخفية الجلية في آن واحد، سينالون نعيما مقيما ما له من نفاد. وهذا الكتاب يميط اللثام عن هذه الحقائق لأولئك الذين يجهلون ذلك السر العظيم. ويمضون أعمارهم دون التفكر في هذه الحقيقة الجلية ويحثهم أن يضعوا لأنفسهم هدفا يكون أسمى ما في هذا الوجود، قال تعالى: (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (16) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (18) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (19) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (20))سورة البلد 11-20

الدنيا دار امتحان

خلق الله سبحانه وتعالى البشر، وجميع المخلوقات الأخرى. لغرض أوضحه سبحانه في القرآن الكريم الذي أنزله هدى للناس كافة: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) سورة المؤمنون: ١١٥ (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) سورة الذاريات: ٥٩ إذن، فما وجد الإنسان إلا لعبادة الله سبحانه وتعالى، وأعمار البشر تقدر تقريبا بين ستين وسبعين عاما، وما أشبه عمر الإنسان بالساعة الرملية حيث ينصرم العمر لحظة فلحظة دون توقف. فكل إنسان يمكث في هذا العالم مدة زمنية لا يعلم مداها إلا الله تعالى، ويجري ذلك تبعا للقدر الذي حدده سبحانه، ولا يملك أحد من الخلق له تبديلا. وكل شيء آيل لنهايته المحتومة عند حلول الأجل (... وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع) سورة الرعد: ٢٦ فكل شيء هنا ينمو ثم يذوي، وهو متوجة سريعا نحو دارالفناء. فالزمن كفيل بإفناء الأحياء والأشياء، لذا، فالمتمسكون بهذه الحياة الزائلة هم إلى خسران مبين.

وكثيرا ما كان المفكر الإسلامي العظيم بديع الزمان النورسي يذكر قراءه بمعنى الفناء الذي يميز هذه الحياة الدنيا ويحثهم على بذل أقصى ما بوسعهم لينالوا شرف نعيم الحياة الآخرة الحقيقية، يقول الشيخ النورسي رحمه الله تعالى: "ما الحياة الدنيا سوى بيت ضيافة والإنسان نازل فيه لمدة وجيزة وهو مثقل بالواجبات فينبغي أن ينشغل بالإعدادات الضرورية استعدادا للحياة السرمدية" . فبديع الزمان يشبه قصر الحياة الدنيا بزيارة مؤقتة. ويقول في مثال آخر: "أيا روحي الحائرة ويا صديقي اهتد إل رشدك ولا تبعثر جوهر حياتك وقدراتك على شهوات الجسد في هذه الحياة الزائلة كالأنعام أو أدنى منها منزلة. وعلى فرض أنك أقوى من البهيمة خمسين ضعفا، فإنك ستهوي خمسين منزلة"دون مزلتها[(2)]

وكما قال النورسى رحمه الله تعالى فالإنسان إنما ركبت فيه هذه الصفات المعجزة كالذكاء والضمير وحسن الفهم لا ليلهث وراء الشهوات الحسية المؤقتة لحياة دنيوية واضحة العجز ولكن لينال بها جمال الخلود وبهذا فحسب يجتاز الإنسان امتحان الحياة الدنيا.

يمتحن الناس وفقا لاستجابتهم لمجريات ما لاقوه في الحياة الدنيا وما مارسوه ضمن دائرة قيمهم الأخلاقية. ومن الواضح أنه لا يكفي لأحدهم أن يقول "أنا مؤمن" بل ينبغي أن يترجم ذلك الإيمان قولا وعملا وسيكشف يوم القيامة كل ما عملوا من شؤونهم الخاصة والعامة وسيقدم لهم كشف مفصل لما عملوه. فلن يظلموا شيئا والحال كذلك أبدا والقرآن الكريم يقول: (ولا يُظلمون فتيلا) النساء: ٤٩ . فالذين أثقلت أعمال البر موازينهم سيكافئون بنعيم الجنة المقيم، أما الذين اتخذوا الشيطان والظلم لهم سبيلا فمصيرهم نار جهنم خالدين فيها. فما خلق الله الحياة الدنيا سوى ابتلاء وتمحيصا، يقول عز من قائل: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) سورة الملك: ٢

مقايضة الحياة الآخرة الباقية بالحياة الدنيا الفانية

من أعظم أخطاء اللادينيين اعتقادهم أن الحياة الدنيا دار خلود وبقاء، غير مدركين أنهم يخضعون في هذه الحياة لامتحان انتقالي، لهذا فشهوات الدنيا الفاتنة تضلهم معتقدين أن ما كسبوه إنما هو نتيجة حتمية لما بذلوه من جهد، ولذلك يداخلهم إحساس الاكتفاء بذواتهم. وينسى الناس في المجتمعات الكافرة الحياة الآخرة فينشغلون في محاولة الحصول على ملذات يحسبوها ذات قيمة، بينما يخبرنا الله تعالى في القرآن الكريم: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (15)) سورة آل عمران: ١٤-١٥

فللناس كما أوضحت الآية رغبات كثيرة ويسعون لنيل ملذات وأغراض لا تعود عليهم بكبير فائدة لأن حياتهم الحقيقية تنتظرهم هناك في الدار الآخرة حيث البقاء والخلود.

والآيات التالية توضح هذا المفهوم، يقول تعالى: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (45) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (46)) سورة الكهف: 45، 46

وكما بين النص القرآني فكل ما يوجد في الدنيا من أموال وثروات وزوجات ومنازل وجاه ووظيفة وغير ذلك، ما هو إلا لعب عابر مصيره الزوال مع موت الإنسان وحلول أجله المحتوم. ولكن كثيرا من الناس لا يدركون أن هذه الأعراض مصيرها الزوال. فينغمسون في تحصيل المزيد من الملذات المادية، والمحرمات، ويسعون في الحصول على السمعة والشهرة بين الناس، فهم مشدودون عاطفيا لهذه المعاني. متناسين تماما كل ما يشدهم إلى الآخرة دار الخلود والبقاء، ولهذا، فهم لا يعدون للآخرة عدها معتقدين أن الموت يعيني النهاية والفناء. وكما قال العلامة بديع الزمان فالموت لا يعني بمجرد الانفصال عن هذه الدنيا أو حتى الفناء، بل هو نهاية ابتلاءات الحياة الدنيا وهو المكان الذي ينال فيه الناس جزاء ما عملوا في الحياة الدنيا: فلم يعد الموت مخيفا كما يتجلى ظاهريا، وكما أثبتنا بالأنوار التي أشرقت على رسائل النور لجمهور المؤمنين بيقين لا يعتريه ريب ولا شك في أن الموت للمؤمن خلاص وانعتاق من كلفة وظيفة الحياة ومشقتها.. وهو تسريح من العبودية التي هي تعليم وتدريب في ميدان ابتلاء الدنيا.. وهو باب وصال لالتقاء الأحبة والخلان الراحلين إلى العالم الآخر.. وهو وسيلة للدخول في رحاب الوطن الحقيقي والمقام الأبدي للسعادة الخالدة.. وهو دعوة للانتقال من زنزانة الدنيا إلى بساتين الجنة وحدائقها.. وهو اللحظة الواجبة لتسلم الجزاء على الخدمة التي تم أداؤها، ذلك الجزاء الذي يغدق بسخاء من خزائن فضل الخالق الرحيم[3] . فما دامت هذه هي حقيقة الموت على الوجه الصحيح فلا ينبغي أن ينظر إليه على أنه شيء مخيف، بل يجب اعتباره تباشير رحمة وسعادة.

ومن الخطأ الفادح أن نظن أن هذه الدنيا دار بقائنا إذا قارناها بخلود الآخرة ودوامها، ويتبين بالمقارنة أن حياتنا الدنيا لا تدوم سوى لحظات قصيرة. يقول النورسي رحمه الله "وكذا يخبر بصدق عن مستقبل، ليس مستقبل الدنيا بالنسبة إليه إلا كقطرة سراب بلا طائل بالنسبة إلى بحر بلا ساحل. وكذا يبشر عن شهود بسعادة، ليست سعادة الدنيا بالنسبة إليها إلا كبرق زائل بالنسبة إل شمس سر مدية[4].

والمسلمون، بعيدا عن هؤلاء الذين تجردوا من أخلاقيات القرآن عندما تطالعهم فكرة الموت لا ينفرون مذعورين بل يستشرفوها بشوق عظيم آملين أن ينالوا كرامة من بارئهم، جزاء ما قدموا من بر وخير في الحياة الدنيا، فقد عاشوا الحياة الدنيا وكلهم أمل وثقة بالله سبحانه أن يدخلهم الجنة حيث النعيم والمسرات التي لا ينضب معينها. وترينا الآيات التالية صورة أولئك النفر الذين كان جل همهم على تحقيق ملذات الحياة الدنيا ومتاعها: (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار) سورة البقرة: ١٧٥ وقال عنهم، في آية أخرى، أنهم قد ارتكبوا خطأ فادحا. والمثال التالي يدلل على مدى الخسارة الكبيرة الي تكبدوها.

والآن أمعن معي النظر في رجلين أوتيا نصيبا من المال لينفق كل منهما كما يطيب له فبعثر أحدهما ماله هباء حتى أتى على آخره بينما أنفقه الآخر محققا منافع جمة لنفسه وللإنسانية على حد سواء، ولأحدنا أن يسأل: ما طبيعة شعور الأول إذا نوقش عند الحساب لن تكون سوى الحسرة البالغة ! . لهذا، فكل ما نملكه من عقارات وممتلكات ومبان، وما نتمتع به من شهرة واحترام، أو جمال، وجميع النعم الأخرى الي منحت للإنسان في هذه الحياة الدنيا ما هي إلا أدوات لكي يعد نفسه للحياة الآخرة. وقد اغتنم المسلمون الأوائل هذه الوسائل بأقصى ما لديهم من جهد لأنهم أدركوا هذه الحقيقة العظيمة. أما الجاحدون، مثل هؤلاء الذين ينفقون أموالهم يمنة ويسرة دون أي تقدير أو تفكير تلبية لرغباتهم الدنيوية فهم يقضون مدة حياتهم القصيرة مستهينين بكل القيم، وبذلك فهم سوف يعانون غدا الخسران المبين في الآخرة التي هي دار الخلود.

ويصف القرآن الكريم لنا حالتهم هذه فيقول: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105)) سورة الكهف: ١٠٣- 105 وهؤلاء الذين لم تغرهم الحياة الدنيا وتيقنوا أن الآخرة هى الباقية، أدركوا أن طيبات الدنيا زائلة لا محالة، فبذلوا جهدهم لينالوا طيبات الجنة ونعيمها. لهذا فقد ربحت تجارتهم مع الله تعالى: (إن الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون

وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) سورة التوبة: ١١١

الله يبتلي بالخير والشر

يتم اختبار المؤمنين في حياتهم الدنيا، كما أسلفنا من قبل، وفق أشكال متنوعة من الابتلاءات أخبرنا القرآن الكريم أنها تتراوح بين معياري الخير والشر: (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) سورة الأنبياء: ٣٤-٢٥ فالناس عرضة لأن يمتحنوا بشتى ألوان الابتلاءات فعليهم. على سبيل المثال، عندما يتمتعون بفائض ثرواتهم أن يفعلوا ذلك متحلين بأخلاق دينهم الحنيف كي ينالوا رضى ربهم عز وجل، مخلصين له أعمالهم ونواياهم. مذعنين لأوامره متبعين إرشاده سبحانه. ولو فتنت ملذات الحياة الدنيا الزائلة الناس فانغمسوا فيها وخاضوا غمارها لأذهلتهم عن جوهر الحقيقة الي خلقوا من أجلها، ولكن مهما تكاثرت النعم بأيدي المؤمنين فسيبقون ممتنين شاكرين لله عز وجل مدى حياتهم.

وقد يمتحن الناس كذلك بالمرض والكوارث والضغوط الي مارسها الكفار عليهم، ويمتحنون بالسيء من القول والسخرية ولكن المسلمين يدركون أن هذه الإبتلاءات كلها جزء من الامتحان لذا يتمسكون بالصبر فلا يمسهم السوء ويكونون هم الفائزون. وقد عقد هؤلاء المؤمنون صفقة بيع مع بارئهم عز وجل مقايضين الحياة الدنيا بخلود الآخرة، وهذا القرآن الكريم يقول: (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وانفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) سورة التوبة: ٨٨- ٨٩. أوضحت لنا الآيات السابقة أن الحياة الدنيا تعتبر بمنظور المؤمنين ميدان جهاد في الله لا يفترون حتى ينالوا رضوانه سبحانه.

ويذكرنا بديع الزمان رحمه الله تعالى أن الدنيا دار كدح وطاعة يحياها الناس وهي مثقلة بالمكاره والشهوات، وأن جزاء الذين تحملوا مشقاتها ومصائبها بصبر جميل جزاء عظيم فانظر ماذا يقول: "إن دار الدنيا هذه ما هي إلا ميدان اختبار وابتلاء، وهي دار عمل ومحل عبادة، وليست محل تمتع وتلذذ، وهي ليست مكانا للأجر ونيل الثواب، فما دامت الدنيا دار عمل ومحل عبادة، فالأمراض والمصائب، ما لم تكن في الدين، وبشرط الصبر عليها تكون متلائمة جدا مع ذلك العمل بل منسجمة تماما مع تلك العبادة، حيث أنها تمد العمل بقوة وتشد من أزر العبادة، فلا يجوز التشكي منها، بل يجب التحلي بالشكر لله تعالى، فتلك الأمراض والنوائب تحول كل ساعة من حياة المصاب عبادة ينال الأجر عليها[5] .

إنه من الأهمية بمكان أن نتدبر هذه الكلمات الرشيدة، وكما بينا سابقا، فالناس ملزمون بطاعة الله والاستسلام لأمره والبقاء على علاقة قوية بخالقهم سبحانه مهما تغيرت الظروف وتلونت. ولعل الصبر على المكاره والمنغصات الي تحفل بها الحياة الدنيا هو إحدى أوجه هذه العلاقة المتينة مع الله سبحانه وتعالى. وقد يحمل الزمن لنا مكاره لم تكن

في الحسبان. فتنتهي أو تدوم إلى ما شاء الله أن تدوم، فمثلا، قد يفتقر غني ، وقد يواجه إنسان ناجح فشلا مفاجئا، وقد يفقد آخر محبوبه، أو يصبح رهن المرض أو الإعاقة. وبغض النظر عن مفهوم الاختبار فإن الله سبحانه وعد الذين

يحسنون الصلة به ويبقون مقيمين على طاعته وعدهم بنعيم لا نفاد له: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (185) لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (186)) سورة آل عمران: ١٨٥-١٨٦.

يخبرنا الله تعالى أن المؤمنين سيخضعون في حياتهم لاختبارات كثيرة. وستكون أنفسهم وأموالهم موضع اختبار وقد ينصب لهم الكفار شراكا كثيرة أو يتهمونهم باطلا وزورا، وبمعنى آخر يواجهون مكاره جمة في كل مراحل حياتهم، لكن المهم هو متابعة سلوكهم الإيماني انسجاما مع أخلاقيات القرآن الكريم في أوقات الشدائد، فيبقون لربهم ذاكرين، ولإنعامه شاكرين مطمئنين أن كل ما يصيبهم سيكون عقباه الخير المحض. ومن البديهي أن يتحلى المؤمن بهذه الأخلاق وهو في رحب العيش ورغده، عما لو حدث ذلك كله وقت الشدائد والكربات. وعدم مساومة المؤمنين على سلوكهم الأخلاقي المستقيم هو أنصع دليل على قوة إيمانهم والثبات عليه. فالمسلمون الذين تجرعوا مرارة الصبر على الفقر والجوع، والخوف والخسارة المعنوية والمادية، ومكابدة المرض وتهديد الكفار لهم. والافتراء عليهم، ونصب شراك الخديعة سينالون أعظم الثواب جزاء تمسكهم بالفضائل الخلقية. ويقدم لنا القرآن الكريم نماذج من الظلم والطغيان الذي عاناه الأنبياء عليهم السلام ومن كان معهم من المؤمنين. وقصة طغيان أحد الفراعنة على شعبه هي إحدى هذه النماذج القرآنية. ويعلمنا الله سبحانه أن ذلك كله إنما هو تمحيص منه لعباده المؤمنين: (وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) سورة البقرة: ٤٩.

أوضحت هذه الآية أن كل ما يضعه الكفرة من عوائق في طريق الخير ماهو إلا امتحان لأهل الإيمان. فثباتهم على الفضيلة وشجاعتهم، وسكينتهم عند تعرضهم للملمات والابتلاءات ستضاعف ثوابهم وترفع درجاتهم في جنات الخلد ويصف لنا القرآن الكريم حال المؤمنين وما سيعانونه وصور ثباتهم على الحق فيقول: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157)) سورة البقرة: ١٥٥-157.

إن الثقة بالله والاستسلام لأمره المذكورين في الآية السالفة هي أروع مثال يحتذي به جميع المسلمين. ولكن الكافرين لا يفقهون معنى لهذه الثقة لأنهم يتصرفون وفق معاييرهم الفاسدة المنحرفة، وهم يظنون أن الطريق الوحيد لجمع الثروة هو انغماسهم في حمأة رذائلها فلا يستطيعون مواجهة الشدائد فيفترسهم الخوف ثم ينبذون إيمانهم والعياذ بالله تعالى. أما المسلمون الذين فهموا سر الاختبارات في الحياة الدنيا، هم يعرفون أن أفضل ما يمكن عمله في مثل هذه الظروف هو الاحتساب والصبر. فهم يصطبغون بأخلاق القرآن ويبذلون ما بوسعهم لترسيخها في نفوس الآخرين. إذا فكل المشكلات الي تعتريهم إنما تقدم لهم دليلا إضافيا أنهم ماضون على صراط الله المستقيم. وكثيرا ما يخبرنا ربنا عز وجل في القرآن الكريم عن السنن التي لا تبديل لها ولا تحويل على مدار التاريخ، وتعرض المؤمنين لألوان من الشدائد والكرب بسبب شتى أصناف المظالم التي ينزلها بهم الكافرون، هو إحدى هذه السنن. دون أن ينجز الكفرة أيا من أغراضهم: وهذه واحدة من بين الابتلاءات التي نبه الله تعالى المؤمنين على إمكانية مواجهتها، وأنهم سيدخلون الجنة إذا صبروا في مواجهتها كما فعل أسلافهم من قبل.

الإذعان للقدر

والقدر واحد من أهم أسرار العقيدة الإسلامية، فالمسلمون كافة يعرفون أن الله سبحانه قد خلق كل شيء بقدره، وما يتحرك ساكن إلا وفق مشيئته سبحانه. والله - كما يخبرنا القرآن - هو بارئ الحياة الإنسانية بأشكالها المتنوعة، وما يقع في ملكه سبحانه إنما هو تحقيق لهذه المشيئة. فليس لأحد القدرة على الإخبار عن المستقبل لأن الناس مكبلين بأصفاد اللحظة وليس بوسعهم التكلم إلا بمنظور لحظتهم الراهنة. ولأن المستقبل من مكنون عالم الغيب، فهم غير مدركين غالبا وربما على المدى الطويل أهمية ما يواجهون من أحداث حياتهم أو حتى إيجابياتها. ولكن الله جلت قدرته خلق الزمان. ويرى الأشياء من خارج حدود الزمان، ويحسن بنا أن نعرف القدر بأنه علم الله بالحوادث ماضيها ومستقبلها وما يمكن أن يتمخض عنها في لحظة واحدة. (لمزيد الاطلاع حول هذا الموضو ع ارجع إلى كتابي هارون يحيى: "لا محدودية الزمان" و "حقيقة القضاء والقدر".

وهكذا، فالله يعلم بداية الابتلاءات الإنسانية ونهايتها وماضي الزمان ومستقبله ولحظته الراهنة. فكل شيء قد تم وأنجز بعلم الله سبحانه بغض النظر عن ماضي الزمان ومستقبله، أما الإنسان فلا يعلم لضعف إمكاناته وقصورها من الأحداث إلا ما يمارسه ضمن إطار الزمن. أما الكفار، فليس لهم من معرفة القدر أدنى نصيب لأنهم على جهل مطبق بكنه حقيقته، في حين أن معرفة القدر هذه تجعل المسلمين يواجهون المكاره والابتلاءات بصبر جميل كما نبه القرآن في سورة التغابن: (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم) سورة التغابن: ١١.

فالمؤمنون يعيشون وهم مطمئنون أن ما يحدث لهم هو أمر مقدر حسمه الله سبحانه بسابق علمه. فهو سبحانه قدرعلى المؤمنين أقضية متباينة. ولطف من وقعها عليهم برحمته ليقووا على تحملها ويتقبلونها متمسكين بإيمانهم واضعين أنفسهم في دائرة عنايته. هؤلاء قد آمنوا بربهم حقا وصدقا. وأسلموا قيادهم له يرون ما يجري لهم من متغيرات فيتقبلونها بهدوء وسكينة لأنهم يعلمون وقد رفعت الأقلام وجفت الصحف، أن الأمر أشبه ما يكون ولله المثل الأعلى - كمن يجلس متراخيا في صالة يشاهد فلما فهو يتابع بثقة كاملة الممثلين وأدوارهم وقد رسمت من قبل وحسمت، فالمشاهد قد تكون مليئة بالحركة والرعب وقد تكون مفعمة بالسكينة والمسرة ولكن يبقى هنا في نفوس المؤمنين شغف الإيمان ومسرته. أما مشاهد الصراع فقد أعدت وأحكمت لتشغل أصغر حيز ضمن مكونات اللوحة وتفصيلاتها. وفي النهاية فإن الجزئيات والتفاصيل منضوية في علم الله سبحانه وتعالى.

فالمسلمون الذين فهموا حقيقة القدر وأدركوا سر الابتلاءات يرون في الكوارث؛ كالمجاعة والفقر جانبا إيجابيا فلا يضيقون به ذرعا واعين أن سلوكهم الأخلاقي الذي يبدونه حيال الابتلاءات أمر بالغ الأهمية في نظر الله سبحانه، فعندما يواجه المؤمنون بمثل هذه المكاره، لا يكونون لقمة سائغة للاكتئاب والضغوط ، والآلام والخوف والهلع لأنهم على يقين أن الله سبحانه سيبدل كل هذه المصاعب لتصبح خيرا ويسرا. ويوجه الله تعالى الخطاب للمؤمنين قائلا: (الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (141)) سورة النساء: ١٤١.

وينبغي أن ندرك هنا أن كل ما ينزل بالمسلمين في هذه الدنيا من مصائب وفقد للممتلكات وضعف في البدن أو مرض أو حتى العجز والموت ينبغي أن لا يعتبروها بالضرورة مؤشرات سيئة، بل هي امتحانات تحري بعلم الله تمحيصا لإيمانهم بالله عز وجل. فلو صبروا على هذه الاختبارات وتجاوزوها بسلام، فإن لهم أجرا عظيماعند الله في الدنيا والآخرة، وسينالون في نهاية هذه الاختبارات الانتقالية جزاءهم متمثلا في حياة خالدة سرمدية في جنات النعيم. فيصبح المؤمنون المدركون لهذه الحقيقة أكثر صبرا عندما يواجهون الشدائد في حياتهم، وبالمقابل تفشل خطط الكفار وتحبط كل جهودهم. وعند رؤية هذا الإخلاص والصبر والرضا لدى المؤمنين يدرك الكفار أنهم عاجزون عن أن يسببوا لهم أي أذى. وتفصح العبارات التي ينطق بها المؤمنون في مواجهة أي وضع متأزم عن مدى استسلامهم لربهم وثقتهم به عز وجل. ويتلوا علينا القرآن الكريم بعضا من هذه العبارات: (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين) سورة إبراهيم: ١٣ (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) سورة البقرة: اه. وهذا الموقف هو النتيجة الطبيعية لإذعان المؤمنين للقدر الذي كتبه الله عليهم، فكل من وثق بالله وتوكل عليه لن يداخله الخوف والحزن. والقرآن يعلن : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون سورة الأحقاف: ١٣.

(بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) سورة البقرة: ١١٢. الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) سورة يونس: ٦٣-٦٤. ويكشف الله لنا في آيات أخرى أن عباده الذين آمنوا به وأسلموا له قيادهم قد استمسكوا بحبل الله

المتين: (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور) سورة لقمان: ٢٢. (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم) سورة البقرة: ٢٥٦.

النظر إلى الأحداث باعتبارها منتهية

عندما يدرك المؤمنون أنهم يمتحنون في هذه الحياة الدنيا فإنهم يشهدون الأحداث من منظور المستقبل، وماذا يعني ذلك ؟ الحقيقة أنه لا عبرة لعظم المشقات ومدى شدها طالما أنها سوف تنتهي وتزول، كأن يتهم أناس بجناية زائفة فيعانون من جرائها ألوان الظلم والجور ولكن لا بد للحقيقة أن تظهر أخيرا. وإذا لم ينته الظلم في هذه الدنيا، فسينال الذين تسببوا في وقوعه عقوبة ما قدمته أيديهم يوم القيامة. ويتطلع أولئك الذين عانوا من الظلم إلى اليوم الذي ينالون فيه جزاء صبرهم واحتسابهم. ويمر الوقت مسرعا: وتنتهي كل مشكلة كطرفة عين. وقد أوضح القرآن لنا أن الله عز وجل وعد أن يجعل نهاية كل اختبار يمتحن فيه المسلم بردا عليه وسلاما: (فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا) سورة الشرح: ٥- 6 ، لذا، فالمؤمنون يثقون في عدالة الله المطلقة منتظرين الفرج دون أن يفقدوا الأمل. فهم واثقون دائما أن اليسر لا بد أن يعقب العسر، سواء في هذه الدنيا أو في الآخرة، وهذا ما قصدناه من رؤية الأحداث من منظور المستقبل.

ويعرف المسلمون أنهم شهداء على أقدارهم ومقادير الناس من حولهم فيلاحظون كل شيء بصبر وثقة وإذعان، غير قادرين على إيقاف تيار الأحداث أو تحويل مجراها لأنها تسير بعلم الله ، وكم من آية ترسخ هذا المعنى في أذهاهم: (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسي أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) سورة البقرة: 216.

وبمعنى آخر، فكل ما يسوء المؤمنين حدوثه سوف يتحول إلى صالحهم إن بقوا متمسكين بإيمانهم بربهم صابرين على قضائه، فهذه الاختبارات فترة تدريبية تعمق إيمانهم وتأصل سلوكياتهم الأخلاقية فيصبحون من الجانب روحيا أكثر نضجا وفطنة وترفع درجاهم عند ربهم في الجنة. والذين يدركون هذه المكانة الروحية السابقة هم جماعة مؤمنة امتثلت لأمر الله سبحانه من أعماق قلوبها. أما الذين لا يسلمون قيادهم للقدر ويرفضون الدين أصلا فسينهارون من اليأس والخوف والاضطراب وقد سدت أمامهم منافذ الأمل نحو النجاة . وسيبقون في شقاء وتعاسة روحية دائمة طالما انطفأ لد يهم بصيص الأمل في نعيم الآخرة: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) سورة الأنعام: ١٢٥. إن حالة الخواء الروحي هذه تمخضت عن رفض هؤلاء القوم لقدر الله فيهم، حيث جنوا على أنفسهم بظلمهم هذا. فالله عز وجل- بكمال قدرته وسعة علمه - يتحكم في مصائر الخلق، ويهيمن على كل شيء في ملكه. وهذه بحد ذاتها نعمة لا حد لها على المؤمنين، أما أولئك الذين خفتت أنوار إيمانهم أو قل انطفأت. فهم لا يعرفون لهذه النعمة قدرا ولا يستطيعون الإذعان لمصيرهم المقدر عليهم فينتهي الحال بهم إلى الاستسلام لليأس والقنوط حن يلقوا ربهم. فما هذه الحالة سوى عقوبة روحية جلبوها لأنفسهم عمدا وقصدا لقلة ثقتهم بربهم عز وجل. (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) سورة يونس: ٤٤.

المسلم أوقات الشدائد

تتكشف سمة الإيمان للإنسان المسلم وسلوكه الأخلاقي بجلاء عند وقوع الشدائد ففي هذه الأوقات العصيبة نرى الأخلاق السامية للمؤمنين. وشجاعتهم. وثقتهم بالله ووعيهم، وصبرهم ورباطة جأشهم. والاستعداد للمسامحة وتضحيتهم، ورحمتهم وإنسانيتهم وتقديرهم، وضميرهم الحي وسكينتهم . ويشير تعبير "المسلم أوقات الشدائد" إلى الفرد الذي يتجشم عناء كل عنت ومشقة وحرمان وهو يبدي تلك الشمائل الرفيعة السامية. فمثل هؤلاء القوم لا يساومون على أخلاقهم. بل يتصدون لكل مكروه بتبصر ووعي وثقة بالله تعالى ويراقبون كل ما يحدث وما يمكن أن يحمله من إيجابية داعين الآخرين إلى التزام بهذه الأخلاق الرفيعة نفسها، وكما يقول القرآن الكريم: (وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا) سورة الأحزاب: ١٠. وعندما نتكلم عن أوقات الشدة، مثل الكوارث الطبيعية، وفقدان العمل أو الإفلاس وما شابهها من أحداث يتبادر إلى أذهاننا نماذج من أناس لا يعرفون لله سبحانه وتعالى قدرا، أما أولئك الذين يتحلون بالإيمان فاللحظات الصعبة تعني مواقف جدية قد يحرم معها المسلمون أبسط متطلباهم الضرورية، حيث تصبح المنغصات أشد خطورة من تلك الي اعتادوها في حياتهم اليومية. ويصف لنا القرآن الكريم الوقت الذي تبلغ فيه القلوب الحناجر بأنها فترة يقع فيها كل ما يمكن تخيله من شدة ومرض ومصيبة تحدث للإنسان آخذ بعضها بزمام بعض، كمن يلقى بهم خارج منازلهم. أو وقوعهم في شراك نصبت لهم أو لأهلهم فيصبحون في مشقة و حزن شديدين.

وقد أورد القرآن الكريم نماذج لمثل هذه المشقات الي لاقاها الأنبياء عليهم السلام والمؤمنون المخلصون. وقد تحمل المؤمنون أصنافا مختلفة من الابتلاءات الشديدة لأن الله سبحانه خاطبهم بقوله : (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) سورة البقرة: ٢١٤.

يخبرنا الله عز وجل في هذه الآية أن المؤمنين سيتعرضون لشدائد كثيرة. فالذين صبروا واحتسبوا سيرضيهم الله تعالى ويجزيهم خير الجزاء. وأوقات الشدائد تميز بين المؤمنين الصادقين والمؤمنين ضعيفي العزائم الذين همهم العيش في الرخاء والبحبوحة، أما مسلمو الصنف الأول فإنهم يستجيبون عند وقو ع الشدائد والكربات بقولهم: (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) سورة البقرة: ١٥٦.

صوت الضمير وصوت النفس الأمارة أوقات الشدائد

يستمع الناس عندما يواجهون أية شدة أو منغص لنداءين منبعثين من عالمهم الباطن، أحدهما صوت ضميرهم الحي يحثهم على التزام السلوك الذي يرضي الله عز وجل مضحين بالنفس ثابتين على الشجاعة والاستقامة. فالذين أصاخوا لهذا النداء سيختارون الصبر لوجه الله والثقة به سبحانه. وينبعث النداء الآخر من النفس الأمارة الي وصفت بحق "الأمارة بالسوء"، وهو نداء يحث على العصيان والفسوق والأنانية والجبن جالبا لأولئك الذين استجابوا له الخسران المبين ليصبحوا للشيطان قرناء. ولتوضيح مدى الخسران الذي يتكبدونه من جراء صفقة عقدوها مع الشيطان. كان من الضروري أن نعلم كيف مارس الشيطان تأثيره عليهم، فقد قدم القرآن الكريم معلومات مفصلة في هذا الموضوع وحذر الناس من مغبة الوقوع في شراكه. فعندما خلق الله آدم عليه السلام أمر الملائكة والشيطان أن يسجدوا له. فسجد الملائكة طائعين وأبى إبليس بكبرياء وتغطرس أن يفعل كما فعل آدم عليه السلام فطرد من الجنة لعصيانه. ثم إنه طلب من الله أن يمهله إلى يوم القيامة ليحاول إغواء الناس، فأجابه الله سبحانه إلى طلبه معلما إياه أنه لن يكون له سلطان على عباده المؤمنين. عندها أقسم الشيطان أن يغوي الناس بما يقدمه لهم من وعود كاذبة وخداع و ما يعده لهم من شراك يقعون فيه ليضلهم عن الصراط المستقيم، ويذكر لنا القرآن الكريم هذا القسم: قال (فبما أغويتني لاقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملان جهنم منكم أجمعين) سورة الأعراف: ١٦ - ١٨. قال (قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (62) قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (63) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (64)) سورة الإسراء: ٦٢ -64. مثلما ذكرت الآية، يحاول الشيطان مختلف السبل أن يبعد الناس عن الصراط المستقيم، إياهم من

تقديم واجب الشكر لخالقهم عز وجل أو أن يعيشوا حياة خيرة، ولهذا فإنه يسعى لجر الأكثرية من الناس ليكونوا في صفه مستغلا نفوسهم الأمارة. لذلك نرى الناس عندما يقعون في الشدائد. يوسوس لهم الشيطان أنانية ألا يفكروا إلا في أنفسهم لتحقيق مصالحهم الشخصية مصورا لهم التضحية والرحمة على أنها أمور سلبية فيها الخسارة لهم : (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) سورة البقرة: ١٦٨-١٦٩.

فينبغي على المسلمين، لهذه الأسباب مجتمعة عند مواجهة الشدائد والمنغصات والكوارث أن يتصرفوا وفقا لنداء فطرتهم السوية كي لا يكونوا في صف الشيطان منفذين ما يريده من أنانية وانتهازية وإصرار على الشهوات وكثير من الصفات السلبية الأخرى وبالتالي ينحرفون عن أخلاقيات القرآن العظيم.

أما المسلمون الصادقون فيستمعون لنداء فطرتهم ويتخذون الصلاح لهم سبيلا. وقد صرح القرآن الكريم بضرورة إظهار الأخلاق الصالحة: (طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم) سورة محمد **21** .

يعلم كثير من الناس أن الإيمان الذي يظهر أثناء الملمات يدلل على سمو الأخلاق فيقسموا بدورهم أن يبقوا مؤمنين أقوياء في مثل هذه الأوقات العصيبة. ولكن عند الامتحان قد لا ينسجم سلوكهم مع وعودهم التي قطعوها على أنفسهم، وقد يتصرفون بسلبية عند مواجهة أدنى المنغصات. وفجأة يستشيطون غضبا إزاء أي موقف ويكيلون الاتهامات الساخطة بدلا من مشاعر الحب والتسامح، ويتحولون في لحظة لمواقف الريبة والتمرد والفظاظة. وهنا يتمايز المؤمن القوي عن الضعيف ويطفو الغثاء على السطح. فأما هؤلاء الذين ضعف إيمانهم فيحرق القلق قلوبهم، ويصبحون أقرب إلى صف الكفار وأعداء الإسلام وممارساتهم منهم إلى صف أهل الإيمان الصادق. بينما تزيد مثل هذه الظروف المؤمنين الصادقين رسوخا في الإيمان وثباتا على الحق. فكل الشدائد والمصاعب الي نواجهها في حياتنا اليومية ما هي إلا اختبار ووسيلة للوصول إلى السعادة السرمدية التي لا يمكن بحال من الأحوال مقارنتها بما في الدنيا من متاع زائل. هذه السعادة السرمدية والنعيم المقيم

الذي يسعى المؤمنون إلى الحصول عليه ونيله في الآخرة، ومن العجب أن هذه الشدائد تزيد المؤمنين المخلصين الصادقين طمأنينة وسكينة وثباتا، وتجلب لهم مزيدا من الحب والاحترام والتقدير من الناس المحيطين بهم. فهي تعد، بالنسبة إليهم، نعمة إضافية تعمق إيمانهم وترسخ يقينهم بربهم عز وجل، وهي نعمة كبيرة تزخر بفوائد جمة تجعل المؤمنين الآخرين يتخذون تلك الثلة المؤمنة مثلا يحتذى به، ولهذا أثر عام على الناس المحيطين بهم بفضل الله تعالى كما ينالون أيضا تقدير غير المسلمين واحترامهم. ومن يعتقد أن هناك حدثا ما خارج إرادة القدر الإلهي يكون بالضرورة تحت تأثير سلطان الشيطان القوي المثير الأول لهذه الشكوك، فالشيطان يفرح أيما فرح عند رؤية من يقعون من الناس في شر أحابيله. ويقع إيمان بعض الناس أحيانا تحت تأثير وساوس الشيطان فيعتبرون أن "حدثا ما" ليس له من أهمية واضحة يمكن أن يكون خارج دائرة القدر أو هو بعيد عن تحكم الله تعالى وعلمه وقصده، فينبغي على المؤمنين أن يتنبهوا لمثل هذه الأفكار ويعرفوا كيف يتعاملون معها حال ورودها على خواطرهم. وهناك شيء آخر يتعين إدراكه، وهو أن فوات بعض الأحداث أو المواعيد، مهما ضعفت قيمتها وقلة أهميتها له يمكن أن يكون له فوائد جمة. مثال ذلك أن يفوتك برنامج تلفزيوني محدد أو تنسى طلب وجبة طعام، فقد يوفر لك عدم مشاهدة التلفاز عمل بر آخر تؤديه أو إبداع أفكار إيجابية. أو قد تصل إلى فكرة تزيد من قدرتك على طاعة الله سبحانه والتبتل إليه. أو تسخير هذه الفترة الزمنية البسيطة لذكر الله عز وجل، فيكرمك الله بأجر كبير ما كنت لتناله لو أنك قبعت أمام شاشة التلفاز. وقد يكون نسيانك

طلب وجبة الطعام سببا في المحافظة على صحتك من أحد الأمراض، وقد يجد المبتلون بضغط الدم العالي أن معدل السكر قد عاد إلى مستواه الطبيعي عند نسياهم أكل الشرائح الي تعودوا على أكلها. وهكذا عندما يسلم المؤمنون أنفسهم ليد العناية الإلهية سيعلو شأنهم في عين الله سبحانه وينالون رضوانه ويصلون إلى حقيقة الحب و الرضا . وهناك أمثلة لا تحصى مأخوذة من حياة الناس اليومية وعلينا أن ندرك هذه المسألة ولا ندعها تتسرب خارج عقولنا دون فهم وروية. فكل ما يواجه الناس من قضايا كبرت أهميتها أو صغرت هي واقعة لا محالة تحت قدر الله سبحانه وعلمه. ولكن الشيطان يوسوس لنا بالقول إن مثل هذه الأحداث أمور أساسية وضرورية لمسيرة الحياة اليومية ولا علاقة لها بقضاء ولا قدر، لهذا ينبغي أن يكون المؤمنون على أكمل يقظة و انتباه لرد مثل هذه الوساوس الشيطانية المدمرة . ولكي نستطيع أن نفهم هذا الأمر لابد أن نبقيه حيا في أذهاننا، عندها نرى الحكمة والصلاح في كل ما يجري من أحداث، لأن كل ما يحدث إنما يقع وفق خطة إلهية مرسومة، وهي نعمة عظيمة لأهل الإيمان في هذه الدنيا وفي الحياة الأخرة إن شاء الله تعالى. هذه حقيقة جليلة تمنح للمؤمنين الحكمة والعزيمة والراحة والقناعة.

التمييز بين الخير والشر

خلق الله سبحانه الخير والشر والجمال والقبح على حد سواء وجعلهم اختبارات على الطريق إلى الجنة أو إلى النار حيث يتمايز الخير بوضوح عن الشر طيلة زمن الاختبار؛ فهناك المؤمنون الصابرون وهناك أيضا الضعاف الذين لا يتحملون مواجهة الشدائد وهناك فريق أخذ على عاتقه مواجهة تيارات الإلحاد وإنكار الدين، وهناك فريق آخر يكتفي موقف المتفرج على الأحداث لا يقدم ولا يؤخر وثمة أناس كثيرون ضعفت عزائمهم أمام نفوسهم الأمارة بالسوء فلم يصغوا لنداء فطرتهم السليمة. ولعل هناك سببا جوهريا لهذا الارتباط القوي بين مفهومي الخير والشر. لا يمكن أن تدرك قيمة الخير إلا من خلال هذا التباين بين المفهومين . فلا يمكن للناس مثلا فهم قيمة الخير إذا لم يكن للشر والحرمان والبلايا من وجود. فضع مثلا الماسة بين كومة أحجار عادية فستراها ازدادت حسنا وبريقا. ويكمن سر آخر وراء ابتلاءات الحياة الدنيا الزائلة حيث يمتحن الناس بالشر والخير ويصبح الفارق بين الخير والشر جليا نتيجة هذا الامتحان، فالخير يوجد في جوانب كثيرة من الحياة، وجانبه الشر الذي لا ينفك يصارعه. فحين ينتزع ملك الموت أرواح الأشرار انتزاعا رهيبا يدعى أهل الصلاح لدخول الجنة حيث النعيم والجمال السرمديين، ويبين القرآن لنا أن هذه الاختبارات هى السبيل الي يتمايز فيها المؤمنون عن أولئك الذين امتلأت قلوبهم إنكارا وجحودا: (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ اقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون) سورة آل عمران: **166**، **167**ذكرت هذه الآيات، أن سلوك صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواجهة الشدائد هو الفيصل الذي يميز المؤمنين الصادقين عن غيرهم من المنافقين.

وقد ذكر بديع الزمان رحمه الله هذه الفكرة بعمق موضحا كيف أن الشدائد والملمات تميز بين الخير والشر وقدم لنا حكمة وإرشادا بالغين حول هذه المسألة عندما سئل عن الحكمة من خلق الشيطان ووجود الشر . فأجاب رحمه الله: إن هناك أسبابا جوهرية تكمن وراء كل مشقة وحرمان ومكروه، وأهم الأسباب هو أن نفرق بين الموقف الهابط الوضيع وذاك السامي الرفيع. وقدم لنا مثالا ليرينا أن الكرب والشدة يفجران أعظم ما في الانسان من طاقات بناءة . فابتلاءات الحياة الدنيا تلقي الضوء عادة على أسوا ما في الإنسان من صفات إذ تمنحه الفرصة المناسبة لإصلاحها. فوجود مرض عصيب في إنسان ما قد يدلنا على وجود اختلال في شخصيته أو خواء في روحه. فهذه امرأة تكشفت لها بعض عيوبها، فهي تبادر لتوها إلى إصلاحها في حياتها قبل فوات الأوان وتتخلص بعد هذه السقطة من كل شائبة وتحسن أخلاقها. وهذا رجل ذو سمعة حميدة شريفة أفلس لسبب ما ثم لجا لوسائل غير شرعية لتحصيل المال ثانية. أرأيت كيف أن البلاء قد يظهر صفات سيئة عند إنسان ما ولو أن هذا الإنسان لم يرتكب إثما لما وضع شرفه موضع ريبة رغم حاجته للنقود. يوضح لنا بديع الزمان رحمه الله تعالى في هذه الرسائل مواقف لا بد أن تتحول لاحقا إلى خير محض فكتب قائلا : (فو جود الشر والأذى، والبلاء والمكروه والمعاناة في الكون ليس بالأمر السيء أو المستقبح بالضرورة لأن هذه المعاني إنما خلقت لغرض مهم . فالتقدم والتراجع شيئان لا بد منهما في حياة البشر فهناك فرق كبير مثلا بين النمرود والفراعنة من جهة، والأنبياء عليهم السلام والأولياء من جهة أخرى ، ولكى نميز الأرواح الخبيثة عن تلك الأرواح الطاهرة السامية . كان خلق إبليس فتحا لميدان الصراع والمنافسة والاختبار وبعثت الرسل الكرام لتميط اللثام عن عظمة سر التكاليف الإلهية. فلولا وجود الصراع والمنافسة لبقيت الصفات الخبيثة وتلك الحميدة كامنة بلا تمايز في أصل الوجود الإنساني، ولبقيت تلك الروح السامية الرفيعة لأي بكر الصديق رضي الله عنه كتلك الروح الوضيعة لأبي جهل وعلى نفس المستوى دون تمايز، ما يثبت لنا أن خلق الشر والقبح ليس بالضرورة أمرا رديئا أو سيئا طالما أنهما يؤديان إلى نتائج حميده" وهناك موضوع آخر تظهر من خلاله أهمية ابتلاءات الحياة الدنيا، فلو لم يكن هناك شر أو بلاء في هذه الدنيا لبقيت سمات الخير في شخصية الإنسان المؤمن كامنة دون أن تظهر على جوارحه و لأصبحنا غير قادرين على رؤية صفات الصلاح والبر لدى عباد الله المخلصين ولن يكون بإمكان الإنسان المؤمن الترقي في درجات السمو الروحي، لذا ، فكل حادثة تبدو سلبية في ظاهرها إنما تفتح آفاقا لا حدود لها من الترقي لتصل بالإنسان المسلم إلى درجة الكمال الخلقي وتعمق بعده الروحي وترفع درجته ومكانته في الجنة إن شاء الله تعالى . كتب بديع الزمان رحمه الله تعالى موضحا : "يشكل

الدين امتحانا ، أو اختبارا ارتآه الله سبحانه لكي تتمايز الأرواح السامية الرفيعة عن تلك الأرواح الدنيئة الوضيعة في ميدان سباق الحياة وإليك الآن هذا التمثيل الرائع، تماما كما ندخل المواد الصلبة في النار كي نفصل الماس عن الفحم والذهب عن الخبث ، كذلك الدين يشكل مجموعة تكاليف فرضها الله على الإنسان ليدخل في ميدان منافسة فسيحة تشكل الفرائض أهم عناصرها، فالدرر القيمة في منجم قدرات الإنسان تنفصل عن تلك المواد الخبيثة، وقد تنزل القرآن الكريم لكي يرقى بالإنسان إلى حدود الكمال الإنساني وهو يقدم الاختبار تلو الاختبار في ميدان سباق شاسع[7] . فينبغي أن تتمايز الصفات الحميدة الراقية، وفقا لهذه المقارنة عن تلك الخبيثة الوضيعة، ولا يتم ذلك التمايز إلا باستخدام النار والمقصود بها الفترة الزمنية المشحونة بالابتلاءات المريرة كالشدائد والنكبات والمنغصات المختلفة وذلك لتخليص النفس البشرية من الصفات الخبيثة الكامنة في فيها. لتشرق بعدها شمائل الخير والصلاح على ضوء الإيمان واليقين. وقدم لنا بديع الزمان رحمه الله تعالى مثالا آخر حول عملية فرز الذهب عن النحاس والمادة الخام الأخرى وضرورة ضربهما "بحجر المحك" لينفصلا بهذه العملية عن بعضهما البعض مادتين قيمتين، ثم يزال خبث النحاس الذي لا خير فيه، ثم تضرب المادة الخام بحجر المحك بقوة وتوضع في منخل ناعم ليتضح لنا وجود معدن الفضة فينقى من معدن النحاس الذي يقلل من قيمته. والسؤال : ماذا يقصد أستاذنا من "الضرب بحجر المحك"؟ هل هي معاناة المشقات والنكبات ومختلف أصناف المتاعب الي تكشف الجمال الباطني الكامن في داخل الإنسان ؟ إن قسوة المشقات والمحن تظهر قوة إيمان الإنسان وتفوق شخصيته. وتميزها عن غيرها. ومن بين نتائج هذا الاختبار أيضا نضج شخصية المؤمن وتقوية الإيمان وتثبيت الجوانب الروحية فيها. إذا بهذه العملية يتم تطهير شخصية الإنسان المؤمن المتميزة من كل الصفات السلبية حتى تبدو وكأنها معدن ثمين، يقول بديع الزمان رحمه الله تعالى : وفجأة أخطر للقلب صباح هذا اليوم ما يلي: إن دخولكم هذا الامتحان القاسي، وتمييزكم الدقيق في المحك مرات عدة ليخلص الذهب من النحاس، واختباركم من كل جانب بتجارب ظالمة لمعرفة مدى بقاء حظوظ نفوسكم الأمارة ووساوسها، ومن ثم تمحيصكم تمحيصا دقيقا، كان ضروريا جدا لخدمتكم التي هي خالصة لوجه الحق والحقيقة، لذا سمح القدر الإلهي والعناية

الربانية به، لأن الإعلان عن هذه الخدمة السامية، في ميدان امتحان كهذا، تجاه معارضين عنيدين ظلمة يتشبثون بأتفه حجة .. جعل الناس يفهمون أن هذه الخدمة القرآنية نابعة من الحق والحقيقة مباشرة، ولا تداخلها حيلة ولا خداع ولا أنانية ولا غرور، ولا غرض شخصي ولا منافع دنيوية ، إذ ما كان عوام المؤمنين يثقون بها لولا هذا الامتحان، حيث كان لسان حالهم يقول: ربما يقولون ليغرروا بنا ويخدعوننا، ويرتاب خواص المؤمنين ويقولون: ربما يعملون هكذا رغبة في الوصول إلى مقامات معينة، و كسبا لثقة الناس بهم ونيلا للإعجاب، كما يفعله بعض أهل المقامات الرفيعة، وعندئذ لا يثقون بالخدمة، ولكن بعد الابتلاء، اضطر حتى أعتى عنيد مرتاب إلى التسليم بالأمر. لذا إن كانت مشقتكم واحدة فإن ريحكم ألف إن شاء الله[8] . لفت بديع الزمان رحمه الله تعالى انتباهنا من خلال هذه الأمثلة إلى أسباب أخرى لهذه المنغصات والشدائد حيث يستلهم الناس من أولئك المؤمنين سلوكهم الأخلاقي الرفيع وسبيل تخلصهم من صفاتهم السلبية أثناء مواجهتهم لتلك الابتلاءات. فإخلاص المؤمنين وما يعيشون به من سلوك أخلاقي رفيع وتحليهم بالاستقامة سيبدو جليا أثناء معاناة الشدائد المريرة، فيلحظ عامة الناس هؤلاء المؤمنين وليس لهم من غرض مادي ولا مكافأة ينتظروها من أحد عما يقدمونه من طاعات امتثالا لأمر ربهم عز وجل ، وسيعترف عندها حتى الذين يثيرون الريبة والشكوك حول المسلمين أن كل جهد قدمه ذلك النفر المؤمن لا باعث له سوى رضوان الله سبحانه، وسيشهد الجميع بطهارة أهدافهم وسموها، وسيقدرون ما بذلوه من تضحية في سبيل الحق، وهذا ما يثبتهم ويزيدهم قوة وعزما.

الثبات على الأخلاق السامية عند المشقات والشدائد أيضا

من الطبيعي أن تمر على الناس في اليوم الواحد أمور عديدة متباينة ، كالشعور بالإرهاق والجوع والضعف، ولكن قد يكون المسلمون محل اصطفاء من الله ليمروا بمحن تكون معاناتهم خلالها أشد وطأة عما اعتادوه من ذي قبل، فنرى فرقا شاسعا بين ما يبديه المؤمنون وغير المؤمنين من سلوكيات أخلاقية حيال المواقف ذاتها، وقد يؤدي ما يلحق بالكافرين من مشقة إلى العصيان والخوف والعداوة، فاقدين الأمل والاستقامة لأنهم لا يؤمنون بالآخرة أصلا، فكل ما يفعلونه نابع من حرصهم على شؤون الدنيا ومتاعها: (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) سورة الجاثية: ٢٤. فوفق فهمهم للحياة، سوف ينتهي كل شيء عندما تقف ساعة الحياة عن الدوران لذا فهم حريصون على تحقيق الراحة ونيل أقصى قدر من اللذة، وهم حريصون كذلك على الحصول على مقابل لأعمالهم وكل ما يفعلونه من خير في هذه الحياة الدنيا دون انتظار أي جزاء في الآخرة. ومثل هذا التفكير يجعلهم غير قادرين على تحمل الشدائد والمشقات. فما هم بالصابرين ولا الواثقين، كما أنهم غير قادرين على إبداء التسامح ولا معاملة الآخرين معاملة إنسانية تزخر مشاعر الشفقة والرحمة. ولاعتقادهم بعدم وجود مكافأة أو فائدة لبذل مثل هذه الفضائل فإنهم يقعون في حبائل اليأس معتقدين أن هذه الشدائد لا تجلب لهم سوى الخسران . إن هذا الضرب من التفكير خطأ كبير، لأن حياة الخلود الحقيقية للإنسان تبدأ بعد الموت ويوم القيامة يحاسب كل فرد على ما قدمت يداه فيتسلم جزاءه العادل. فالذين تمسكوا بالأخلاق السامية الرفيعة لن يمسهم سوء ولا نصب بل ستكون مكاسبهم عظيمة جليلة، وسيجزون خيرا على كل كلمة نطقوا بها، وعلى كل عمل خير أدوه وعلى كل تضحية بذلوها، وعلى كل إخلاص أبدوه. أما أولئك الذين خرجوا من ربقة الدين فهم لا يدركون لهذه الحقيقة أهمية، فتأخذهم رهبة مفزعة أمام المواقف الحرجة لأنهم ينكرون أصلا فكرة الاختبار حيال كل ما يقومون به من أعمال، وهذه مسألة ينبغي أن نوجه لها عناية كبيرة: (وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) سورة النساء: ١٠٤.

يتعرض المؤمنون وغير المؤمنين كما أوضحت الآية الكريمة، للمشقات والمصاعب نفسها، ولكن الكافرين، لاصرارهم على كفرهم، لا يقبلون أن ما يجري من أحداث هو أمر مقدر من الله ابتداء وبذلك فهم لا يرجون ما يرجوه المؤمنون من ربهم عز وجل، فالفارق الأساسي بين الفريقين هو ذهول الكافرين وغفلتهم عن الهدف الجوهري لحياتهم الدنيا. وهو ما يميز المؤمنين في الدار الآخرة عن أولئك الكفرة. ومن جانب آخر، يمثل الجوع مشقة ومشكلة كبيرة لدى الكافرين. بينما هو اختبار يبرز عظمة أخلاق المؤمنين وهم يعتبرونه فرصة ما ينبغي أن تفوهم دون ما فائدة يحققوها ويمثل الإذعان لإرادة الله سبحانه والثقة به والصبر على قضائه. وفي مثل هذه الأوقات العصيبة أهمية خاصة بالنسبة لهم، غير فاقدين الأمل بربهم عز وجل ملتمسين الجانب الإيجابي في كل ما يجري حولهم، وعلى هذا النحو أيضا يتجاوز المؤمنون هذا الامتحان بسلام. إن أول ما يراعي الكفار عادة مصالحهم وراحتهم الشخصية في حين يراعي المؤمنون ذوو الأخلاق الحميدة الحق ويجعلون إخوانهم المؤمنين أولى بالإحسان فيفسحون لهم أوسع المجالس ويكرموهم بأجود الطعام ويمدوهم بأفضل الملابس طواعية، فعند اشتداد البرد مثلا يقدم المؤمنون لإخوتهم العون من أغطية ومآكل ومشارب حتى وإن شعروا هم بالبرد. تغمرهم السعادة العارمة أن وفروا لإخوانهم أسباب الصحة والسلامة والراحة. ذلك أن السعادة القلبية الي ينالونها بفضل التضحية الي يبذلونها لا تقارن بحال إذا ما قيست بمتعة شربة ساخنة يحتسونها. أما أن تعامل الآخرين بإحسان فيقابلونك هم بالإساءة والقطيعة، وتوجيه الكلمات النابية القاسية فهذا سلوك لا يصدر إلا من قبل المؤمنين الواثقين بربهم عز وجل.

وإليك صورة أخرى لمثال العمل الصالح: شبعان يبذل الطعام لجائع، وثان ينعم بالدفء فيعطي الكساء لمن يشكو البرد القارس فكلا الرجلين يكبران في عين الله عز وجل، وهذا أمر بالغ الأهمية ينم عن قوة إيمان وإخلاص لدى الفرد المؤمن وشدة ورع عنده وسمو أخلاق عند الشدائد. وقد يستمع أهل الفضيلة - المستجيبين لنداء فطرهم السليمة - لصوت النفس الأمارة تدفعهم نحو ارتكاب الآثام مصورة لهم صعوبة التمسك بالفضيلة والثبات عليها متبعة شتي السبل لإبعادهم عن التزام الفضيلة موهمة إياهم أن البرد سيصيبهم إذا تصدقوا بما عندهم من كساء، ويجوعون إذا بذلوا الطعام للجائعين وهذه إحدى أساليب الشيطان في استخدامه لأسلوب التخويف من الفقر لمنع المؤمنين من مد يد العون لإخوانهم الفقراء: (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد* الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم) سورة البقرة: 267، 268 تبين لنا الآيات السابقة أن الله قد أوهن كيد الشيطان ووهب رضاه للعاملين وفق سلوكيات القرآن السامية الرفيعة ومنحهم سعادة روحية لا تقارن مع أي من الملذات الدنيوية مهما بلغت قيمتها، فالتضحية بالنفس، والصبر والإخلاص وإبداء الكرم وبذل المشاعر الإنسانية والوفاء تعود على الإنسان بآفاق من السعادة لا حدود لامتدادها، وقد امتدح الله تعالى في سورة الحشر أخلاق المؤمنين السامية حينما فتحوا بيوتهم لإخوانهم المهاجرين مقدمين لهم كل ما يحتاجونه، وقد يكونون هم في أشد الحاجة: (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) سورة الحشر: ٩.

ويصف الله تعالى لنا عطاءه العظيم للعاملين في سبيله عند تجاوزهم اختبار العطش والجوع والإنهاك في سورة التوبة: (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول اله ولا يرغبوا بانفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطنا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين) سورة التوبة: 120 مثلما بينت هذه الآية الكريمة فإن كل كرب يعانيه المسلم أثناء سيره إلى الله تعال يحتسب له عمل صالح، وعلى فرض أن الناس جميعا قد فطروا على طاعة الله سبحانه وتقديم الصالحات من أعمالهم فسينالون أتم الجزاء لصبرهم واستقامتهم، ولن يخافوا ظلما ولا هضما. ويوقن المؤمنون كذلك أن الله وحده سيوفيهم أجورهم لمعاناتهم المرض ومختلف الشدائد وأن الدنيا وما عليها مصيره إلى زوال. وبذلك فلا تنقصهم الفطنة والحزم والثبات على مبادئهم، وقد علموا من القرآن الكريم أن الله سيمد من عمل في سبيله بالمدد والقوة الروحية. فهم مدركون أن ابتلاءات الحياة الدنيا تولد إحساسا عظيما بالطمأنينة عند مواجهة المشقات. ولن يكونوا أبدا فريسة سهلة للخوف والقلق والاكتئاب بحكم إدراكهم لمجريات الأحداث أنها اختبارات على الطريق وهيهات أن يفقدوا الأمل أو يساورهم الخوف.

القوة التي تشد أزر المؤمنين

إن الشخصية القوية المستبشرة الي تبدو عند المؤمنين الصادقين أوقات المشقات والشدائد لا يدركها من لا يؤمنون بقوة الله وقدرته المطلقة. فالشك يساورهم، وهم مرتابون في المصدر الذي يستمد منه المؤمنون قوتهم. ويبقون في جهل إزاء القوة الي تمد المؤمنين هذه الطاقة المؤيدة. فالناس في عاداتهم أقوياء بما يملكون من وسائل مادية وعلاقات اجتماعية. فتراهم دائمي البحث عن نوع من قوة تدعمها مصادر مادية مختلفة يظنونها مصدر القوة عند المؤمنين وهم جاهلون بأن قوة إيمان المؤمنين تنبع أصلا من إذعانهم لقدر الله سبحانه وثقتهم المطلقة به إلى جانب إيمانهم الراسخ بالآخرة، وتحفل حياة الأنبياء والصالحين بأمثلة خالدة لتفجر هذه الطاقات من معين الإيمان بالله تعالى والثقة به.

وتمثل قصة سحرة فرعون أنموذجا رائعا في هذا السياق، حيث أظهر السحرة بعد إيماهم بالله عز وجل قوة إيمانية فذة عندما هددوا بالموت من قبل فرعون. فقد حاول فرعون أن يرهبهم بالتنكيل والموت ليبعدهم عن سبيل الهدى الذي جاء به موسى عليه السلام، فكان جوابهم أن لا خشية إلا من الله تعالى وأن ما سيصيبهم هو من قدر الله تعالى فيهم،

وبقي السحرة المؤمنون رغم شدة التهديدات متمسكين بإيمانهم واثقين بربهم عز وجل. وما كان لهم أن يظهروا ذلك كله لولا صدق توجههم إليه سبحانه : (قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73)) سورة طه: 71-73 ومثال آخر عن فتية آمنوا بنبوة موسى عليه السلام في حين نجحت تهديدات فرعون في صد نفر من شعبه عن الإيمان بالله فخسروا معه الدنيا والآخرة وثبت أولئك الفتية المؤمنون لا يخشون في الله لومة لائم ولم تجد معهم تهديدات فرعون وظلمه لزحزحتهم عن إيمانهم الخالص بالله عز وجل: (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين) سورة يونس 83 . فالمؤمنون عامة، كهؤلاء الفتية المخلصين الذين آمنوا بنبوة موسى عليهالسلام يظهرون نفس الثقة والشجاعة عندما يناصبهم المجتمع العداء أو تجتمع عليهم المشقات والكروب أو تصيبهم الحاجة الماسة، و يقول القرآن الكريم في سورة الأحزاب: (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما) سورة الأحزاب: 22

طاعة أوامر الله تعالى في أوقات الشدائد أيضا

تمثل استجابة المسلمين لأوامر الله سبحانه وتوصياته واحدة من أنبل ما يميز المؤمنين من الفضائل. فهم لا ينتهكون شيئا مما حرمه الله تعالى عليهم مهما بلغت حاجتهم أو زادت وطأة كربتهم، ولن يعرضوا أمانتهم وإخلاصهم للشك والريبة عند تعرضهم لمرض أو ضرورة، أو فشل أو اضطهاد. ويود الشيطان، كما نبهنا من قبل، أن يضل الناس عن سبيل ربهم القويم ليحملهم على سماع نداء نفوسهم الأمارة بالسوء، فيحثهم أن ينتهكوا ما حرم الله تعالى ويحجب عنهم سبل هداية ربهم عز وجل وتشاركه النفس الأمارة لتحقيق الهدف نفسه موسوسة ومزينة لهم ارتكاب أسفل الأعمال وأرذلها محاولة على سبيل المثال منع الناس من الاستيقاظ لأداء صلواتهم. مزينة لهم النوم والاسترخاء وغير ذلك من السلوك الذي فيه معصية لله تعالى. ويحدثهم الشيطان حديثا يزين لهم فيه حب الراحة ويحول بينهم وبين القيام لأداء الطاعة. ولكن المؤمنين لا يصغون لهذا النداء السلبي فينهضون كل صباح بنشاط وحماس لأداء صلواهم، متيقنين أن هذه هي السبيل القويم نحو الإحسان والخلاص الحقيقي. ولنأخذ مثالا على ذلك أيضا موضوع الصيام فنداء النفس والشيطان يريد أن يقنع الإنسان بصعوبة الصيام رغم أنه فرض من عند الله تعالى، فيصور للإنسان حالة الجوع والعطش ومشقتهما. بيد أن المؤمنين يصبرون ويثبتون على الطاعة بعزيمة راسخة رغم ضغوط النفس الأمارة المستمرة، لأنهم يتوقون إلى نيل الثواب من عند خالقهم على الجوع والعطش والتعب الذي يتجشمونه قياما بالطاعة وتلبية لنداء الإيمان ونفوسهم مفعمة بالراحة والسرور. وبالصورة نفسها تزين النفس الأمارة المال غير المشروع ليبدو حلالا. وذلك أن أكثر الناس يفعلون ذلك ولكن المؤمنين المخلصين الصادقين لا يسمحون لأنفسهم أن يسقطوا هذه السقطة المريعة رغم حاجتهم الملحه أحيانا للمال وإصرار النفس الأمارة على فعل ذلك. فلا يقربون مالا حراما ولا يتناولون طعاما مصدره من الحرام مهما بلغت بهم الحاجة، وهم لا يبررون لأنفسهم فعل شيء من ذلك بحجة الخصاصة، وإنما ينأون بأنفسهم عن كل ذلك لأنهم يدركون أهمية تجنب محارم الله عز وجل، وهذا الإدراك نابع من حس إيمان داخلي عميق وخشية خالصة من الله عز وجل. ويخاطب القرآن الكريم المسلمين التواقين للعمل بمقتضى ما يرضي ربهم عز وجل، فيسابق بعضهم بعضا مسرعين نحو عمل الخير مجتهدين للوصول إلى جنة ربهم الموعودة باذلين ما بوسعهم صابرين على الشدائد . وقد يكون لهم إخوة مسلمون أصحاب حاجة على سبيل المثال فينهضون صبيحة يوم عز نومه محاولين أن يلبوا كل حاجاتهم وقد لا يعلم أصحاب الحاجة من من الناس أسدى إليهم صنائع المعروف تلك. وقد فعل أولئك ما فعلوا وهم لا يودون إشهار ما عملوا كي لا يسببوا أي إحراج لإخوانهم. تملأ قلوبهم سعادة عميقة لتطبيقهم مثل القرآن، وقد وجدوا فيه الأسلوب الأمثل البعيد عن كل رياء: (واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر

لعنتم ولكن الله حبب اليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم) سورة الحجرات: 7- 8. ولكن يحاول الشيطان رغم كل شيء بكافة السبل أن يلبس غير الشرعي من الأعمال لباس الشرعية ويدلل على صحة ما يذهب إليه أن غالبية الناس هم على نهج ما يوحي به، فيتداول كثير من الناس المال الحرام

غير آبهين كونه حلالا أو حراما متجاوزين تعاليم القرآن ومبادئه، وهو كذلك يحاول إقناعنا أن ما تفعله الأغلبية هو عين الصواب. بيد أن القرآن الكريم ينبهنا إلى شيء مهم، إذ أن أولئك الذين يرتكبون الآثام دونما اعتبار لأي قيمة ليسوا حقيقة على صراط ربهم المستقيم ولو كانوا هم الأكثرية من الناس: (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون) سورة الأنعام: ١١٦. ويعلمنا الله عز وجل من جهة ثانية أن قليلا من الناس يتمثلون حقيقة الإيمان ولكن الأكثرية ليسوا على صراط ربهم القويم، ولهذا لا يقوى الشيطان على خداع المؤمنين، بل غالبا ما يكون تأثيره على ضعاف الإيمان ومن ملأت الريبة عقولهم رافضين فكرة الإيمان بالله تعالى. تنبع صلابة موقف المؤمنين المخلصين من إيمانهم العميق بالله عز وجل وما

يجلبه هذا اليقين من قوة ثبات على الحق بالإضافة إلى سلوكهم الأخلاقي السامي، فالمؤمنون يعرفون أن العمل الصالح يقف سدا منيعا أمام تلبيسات الشيطان ووساوس النفس الأمارة بالسوء.

فعندما يتحلى المؤمن بشيم الكرم والولاء والصبر والإخلاص وغيرها من القيم الحميدة الأخرى، تكون النفس الأمارة في أسوا حالاتها، وتكون نتيجة هذه الأعمال الطيبة لذة روحية وراحة بدنية يجدها المؤمن في نفسه. ومن الأجدى أن نعيش حياتنا في هذه الدنيا وفي الأخرة في حالة من القناعة والطهر. من أن نقتنص كل شهوات الدنيا وما يرضي النفس الأمارة، فالذين أبوا سماع نداء النفس الأمارة لإقامة علاقات غير مشروعة وفضلوا انتظار جزاء ربهم العظيم في الآخرة سينعمون في هذه الدنيا بشرف وعز كبيرين. أما

أولئك المؤمنون الذين تعبوا من أجل إراحة الآخرين وجاعوا من أجل إطعام غيرهم واستهانوا بالمشقات والمتاعب في سبيل دينهم فإن قلوبهم تكون مفعمة بالطمأنينة طمعا في رضاء ربهم عنهم. وقد امتدح الله تعالى في كتابه العزيز المؤمنين الذين يتحلون بهذه الشمائل الأخلاقية الرفيعة، ونالوا كذلك محبة الناس واحترامهم. وسينال- هؤلاء الذين يعملون لوجه الله تعالى مواجهين الصعاب بسرور ورضا يعملون بثبات لا يكل لقضيتهم العادلة دون خوف أو وجل، متقبلين طواعية تقدم النفس والنفيس من أجل قضيتهم. ويذكر الله تعالى في كتابه الكريم من التزموا بطاعة فكان نصيبهم الفوز: (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) سورة الأنبياء: ١٠١.

أخوة المؤمنين الحقيقية أوقات الشدة

"عند الصعاب يفتقد الأصحاب"، هذا مثل سائد يعتبر تعبيرا صادقا عن الفكرة الشائعة بندرة وجود الصديق المخلص عند الحاجة إليه، ومع ذلك. فإن قيمة الوفاء والإخلاص ذات أهمية بالغة في حياة الناس خاصة عند مواجهة شدة أو مرض، إذ يكونون في أمس الحاجة لدعم معنوي من صديق مخلص، إن الصداقة في المجتمعات الغربية اللادينية مبنية على الانتهازية، فالناس هناك قليلا ما يجدون الصديق المخلص خاصة عند تعرضهم لأوضاع حرجة فيتكشف لهم الوجه الحقيقي لمن كانوا يعتبرونه دائما صديقا وفيا. بل ربما يزيدهم ذلك الصديق المفترض شدة وعنتا أوقات ضيقهم، وهم يشكون وتعلوا أصواتهم بطلب النجدة ولكن لا حياة لمن تنادي. وخذ مثال الرجل الذي يقود سيارة فارهة ويأكل في أفخم المطاعم وله عدد كبير من الأصدقاء، افترض معي أنه فقد عمله وبقي على مرتبه البسيط. كيف سيكون موقف من تربطه بهم علاقة الصداقة ؟ هل سيبدون له نفس مشاعر المودة التي كانوا يبدونها له عندما كان ثريا ؟ هل سيكنون له نفس التقدير والاحترام الذي كانوا يظهرونه له عندما كان يرتدي أفخر الثياب ويقود أفخم السيارات؟ كيف سيعاملونه لو لبس رث الثياب و لم يعد ينفق من ماله عليهم أو يدعوهم لوجبات العشاء كما عودهم فيما مضى ؟ من الواضح أنه يخسر ولاءهم ولن يحوز انتباههم مرة أخرى. إن كل من ظنهم أصدقاءه سيولونه ظهورهم وربما يتظاهرون بعدم رؤيته عند لقائه هذا إن لم يهزؤوا منه، إن حقيقة الشخص باقية لم تتغير لكن الذي تبدل هو مظهره الخارجي ولأن المظاهر الخارجية هي موضع اهتمام أصدقائه السابقين فقد هجروه في لحظة تاركين إياه وحيدا. وخذ مثالا آخر، زوجان تعاهدا منذ بداية حياتهما الزوجية أن يقف كل منهما إلى جانب الآخر في أوقات الشدة والرخاء ولكن ما أن تصاب الزوجة مكروه كالشلل النصفي مثلا إثر حادث - لم تعد تقوى معه على السير أو عمل أي شيء بمفردها - إلا ويتبدل الموقف، لكن ربما بقي الزوج معها لبرهة يسيرة وحين يدرك الزوج أن حالتها هذه مزمنة ولا فائدة مرجوة منها، ينقلب كل شيء رأسا على عقب. يتبين لنا من هذا المثال مفهوم الكافرين للوفاء والإخلاص والصداقة، فعندما تتعطل المصلحة تنقطع أواصر المحبة، أما الذين لم يهجروا زوجاتهم في مثل هذه الظروف العصيبة فلاعتبار ما يمكن أن يقال عنهم من قبل أصدقائهم وليس لاعتبار المحبة للزوجة المقعدة أو الرأفة بها، ففي الظاهر هم مخلصون أوفياء، ولكن في الحقيقة لا يشعرون أبدا بصدق الرأفة والحنان. ومعاملة الشباب لكبار السن من آبائهم واقع آخر يكون أشد وضوحا في المجتمعات الكافرة البعيدة كل البعد عن أخلاقيات القرآن الكريم ومثله. فقد لبى هؤلاء الآباء لسنين عديدة متطلبات أبنائهم، وما إن يتقدم بهم السن وتضعف قواهم البدنية حتى يتنكر الأبناء لما يفترض أن يبذلوه من وفاء وعناية بآبائهم فيشعر الأبناء أن آباءهم يشكلون قيودا عليهم ويكون الحل أخيرا بوضعهم في بيوت العجزة. يبدي المسلمون الوفاء الصادق في معاملة أفراد عائلاتهم في جميع الظروف مهما تباينت أشكالها فربما أطعموا آباءهم وهم أنفسهم لا يأكلون. ويتفانون في تلبية حاجاتهم. وقد وصف القرآن الكريم الطريقة المثلى التي ينبغي على المسلمين اتباعها في معاملة آبائهم (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما) سورة الإسراء: ٢٣. بين المسلمين الأوفياء فقط تجد هذه الأخوة الحقيقية، والوفاء الصادق والإخلاص الحق. فهم مناصرون لإخوانهم متكافلون معهم وملتزمون أخلاقيا مراعاة شؤونهم حتى في ساعة العسرة، باذلين أقصى ما بوسعهم لتلبية حاجات إخوانهم قبل حاجاتهم الشخصية شاعرين بسعادة عارمة لما يقدمونه من تضحية. فعندما يعاني إخوانهم مرضا أو يواجهون أزمة مالية تراهم يسارعون بتقديم ما عندهم قبل أن يطلب منهم ذلك. ولو حرموا النوم أو الطعام فلن يدعوا إخوانهم في عسرة ومشقة. ويخبرنا القرآن الكريم عن هؤلاء الأخوة الصادقين: (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) سورة المائدة: 155 (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير) سورة الأنفال: ٧٢.

إن مع العسر يسرا

نحن نذكر المصاعب والمشقات الي يمتحن الله تعالى بها عباده المؤمنين الذين يظهرون أرفع سلوك أخلاقي وسط الظروف الحالكة. وعرضنا كذلك مشاعر السعادة والحب والتقدير الي يتحلون بها انسجاما مع سمو أخلاقهم. مدركين أن الله تعالى ينزل مع كل اختبار يمتحن به عباده رضا وسكينة تريح المؤمنين الصادقين وتطمئنهم. وقد ذكر هذا الوعد في القرآن الكريم: (فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا) سورة الشرح: ٥- 6 (... يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر...) سورة البقرة: ١٨٥ (ونيسرك لليسرى) سورة الأعلى: ٨ (ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا * ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا) سورة الطلاق: 4- 5 (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا) سورة الطلاق: ٧ (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى* وما يغني عنه ماله إذا تردى) سورة الليل: ٥-١١ فالله تعالى ينزل سكينته، وفق هذا النسق القرآني، على المؤمنين العاملين أثناء معاناهم الشدائد والصعاب، مادا إياهم بالعون من خزائن رحمته سبحانه تحمل مدده إليهم ملائكة كرام زافين لهم أسعد البشائر الربانية: (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون * إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين * بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين * وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم * ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين) سورة آل عمران: 123- 127 والله تعالى يدافع عن الذين آمنوا. وتنتصر لهم الملائكة بجنود لم يروها ليبقوا ثابتين بين شعوري الأمن والرضا، ويصف القرآن الكريم في آية من سورة التوبة التأييد الإلهي للنبي صلى الله عليه وسلم في إحدى المواقف العصيبة فيقول: (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم) سورة التوبة: 40 كما رأينا في الآية السابقة، كل فترة عصيبة كان يتبعها إحساس عميق بقرب الفرج وزوال الشدة. والمؤمنون يعملون يدا واحدة مدركين أن ما يمر بهم من أحداث ينطوي على اختبار قد أعد لهم، مقدرين ضرورة تهيئة أنفسهم لحياة الآخرة الخالدة، وهو ما يمدهم بإحساس لا حد له من الطمأنينة عند مواجهة الابتلاءات متلقين من الله سبحانه أعظم البشائر وأسعدها. وقد شهدنا مصداق ذلك في حياة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته المؤمنين حيث أعقب صبرهم واحتسابهم النصر المبين. وتقدم سورة يوسف عليه السلام تمثيلا عمليا لمثل هذه البشائر الربانية الصادقة؛ فقد القاه إخوته في الجب طفلا صغيرا وباعه الذي انتشله من الجب عبدا لعزيز مصر ثم اتهم بالتحرش من قبل امرأة العزيز ظلما وجورا. فأودع السجن وقاسى ويلاته دون أن يساوم على أخلاقه ومثله وكان يهرع لباب الله عز وجل عند كل ملمة تعتريه، فيشعر بإيجابية كل ما يمر به من أحداث حين أصبح مضرب مثل يحتذي به المؤمنون لكثرة طاعته وثقته بالله تعالى وسط خضم من المصائب والبلايا، وجاء إطلاق سراحه من سجنه مكافأة إلهية، وشهادة على حسن صنيعه وشدة قربه من ربه عز وجل. وظهر إحسان الله له حين أسند إليه أخطر منصبين في الدولة، القوة والثروة. وشاءت الإرادة الربانية أن تكون حياة يوسف عليه السلام محط العناية الإلهية ليكون مثلا يحتذي به المؤمنون، ومرجعا صادقا لتحقيق وعد الله لعباده المخلصين، يتلمسه المؤمنون الصابرون الواثقون بربهم عز وجل وقت الشدائد بقرب راحتهم وفرجهم : (.. ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا) سورة الطلاق: ٢-٣ ويمتحن الله عباده، كما أوضح المثال السابق، في أوقات مختلفة بالشدائد ليبقى المؤمنون في محراب عبوديتهم مذعنين لربهم يملأ قلوبهم الرضا فيرتفعون

في مدارج الكمال موقنين من نيل جزائهم أضعافا مضاعفة عن كل ما قاسوه من معاناة وتحلوا به من أخلاق رفيعة في جميع المواقف العصيبة. والتضحية بالنفس والصبر والإذعان لقضاء الله فيهم. ورب دقائق من الشقاء تحملوا عناءها في الدنيا تعود عليهم بملايين السنين من نعيم الجنة . هكذا يقضي المؤمنون الواثقون بوعد الله تعالى حياتهم بأشواق عارمة وآمال متوثبة

لنعيم سرمدي لا ينقطع مدده. ويصف الله عز وجل حالة المؤمنين الصادقين بقوله: (والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما والذين إذا ذكروا بآيات ربهم له يخروا عليها صما وعميانا والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما) سورة الفرقان: 72- 76 (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب) سورة النور: 37- 38

موقف غير المؤمنين إزاء الصعاب

لا تتغير أخلاق المسلم، كما أوضحنا من قبل، مهما تلونت أحوال عالمه الباطن. أما مرضى القلوب والذين لا إيمان لهم فهم غير قادرين على تحمل المشقات ومكابدتها فمحرك صبرهم متعطل. ومرجل إيمانهم لا حرارة فيه، وعليه تراهم أكثر عنتا عند مواجهة الشدائد، وقد يستشيطون غضبا وحنقا لأتفه الأسباب وتثور عدوانيتهم، وربما لجأوا إلى العنف. وقد يتظاهرون في الظروف العادية بالمرح والطمأنينة ولكن سرعان ما تتملكهم العدوانية والفظاظة عندما يعرض عليهم المؤمنون حقائق الإيمان وحقائق الأخلاق القرآنية، فتثور عداوتهم كاشفين اللثام عن دمامة وجوههم وسوء أخلاقهم. وأكثر ما يكشف معدن شخصيتهم فقدانهم فرص العمل أو تعرضهم لمرض أو حادثة أو مصيبة أو بلاء. فلو فقدوا السكن لفترة قصيرة مثلا أو حرموا النوم أو قضّت المشكلات مضاجعهم فسرعان ما يصبحون فريسة للقنوط، ويصف الله تعالى لنا هذه الشخصية الجاحدة التي غالبا ما تظهر عند الشدائد فيقول: (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فاكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن) سورة الفجر: 15- 16 وهكذا، يبتلي الله تعالى الكافرين بالمنع والعطاء وفقا لإرادته سبحانه. فيبقى المؤمنون بكامل ثقتهم بربهم وامتنانهم له عز وجل. وينقلب الكفرة على أعقابهم جاحدين نعمة الله تعالى عليهم منكرين جميل صنعه فيخسرون الدنيا والآخرة، وقد تأتي ردة فعلهم على شكل اكتئاب حاد يدفعهم للانتحار أو اللجوء إلى المسكرات أو المخدرات. فهم لا يفهمون هذه المصاعب فهما إيجابيا، ولا يقدرون الخير الذي يمكن أن تنطوي عليه. ويشدد الله تعالى عليهم وطأة البلاء جزاء وفاقا: (وما نريهم من آية إلا هي اكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون) سورة الزخرف: ٤٨ وبمعنى آخر يسلط المولى عز وجل عليهم أوقاتا عصيبة عسى أن يعودوا لطريق الحق فيتوبون ويلزمون جادة الإيمان ولكن غالبا ما تجعل هذه المنغصات قلوبهم أكثر قسوة فيزدادون بعدا عن خالقهم عز وجل وإنكارا لجلال عظمته سبحانه : (فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون * فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) سورة الأنعام: ٤٣ -44 .

الحالة النفسية لأولئك الذين أخلدوا إلى الأرض

إن فهم المسلمين لسر الاختبارات التي يمرون بها يمدهم بالرضا والطمأنينة و يجعلهم ينعمون بثمرات صبرهم واحتسابهم، أما الذين أخلدوا إلى الأرض ظانين أن الحياة الدنيا دار مقام وبقاء فإنهم يشقون بما يعانون من بؤس وآلام وغم وأنانية ورغبات دنيوية. ويداخل هذا الألم جميع تفاصيل حياتهم ويتسم كل ما يفعلونه بالعقم والكدر وانعدام القدرة على معرفة الخير والذهول عما يمكن أن تجلبه الأخلاق الحميدة من بهجة وصلاح. فشخصياتهم غير سوية ومواقفهم غير موزونة بموازين الخير والشر، وأكبر همهم التفكير الدائم في مصالحهم الذاتية ظانين أن بخلهم وأنانيتهم تجلب لهم منفعة دون رؤية ضرر هذا السلوك على الناس الآخرين، وكل من يحذو حذوهم يلحق به ما لحق بهم في الدنيا والآخرة . لقد خسر الذين كفروا نعيم الجنة وأخطر منه خسرناهم رضوان الله تعالى ورحمته. وقد سمى القرآن هذه الحالة ب "الخسران المبين": (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا) سورة فاطر: 39 ويستوعب أهل الإيمان هذه الدروس المؤثرة، وهم يراقبون حال المنكرين والجاحدين. ذلك أنه لا يمكن غض الطرف عن إنسان يسرق مال يتيم أو ينهب أملاك شخص آخر ليتمتع بها. وهذا القرآن الكريم يقدم وصفا لهم: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) سورة الأنعام: ١٢٥ فمثل هذا السلوك قد لا يلاحظ بشكل واضح جلي ، ولكن يمكن لأهل البصيرة والخشية من الله أن يتبينوا هذه الصفات المنبوذة، فأولئك الناس أقل الإنسانية منزلة رغم امتلاكهم المال والمتاع، فهم لا يحضون على طعام المسكين رغم حاجته، ولو حدث وفعل شيئا من الخير فعن مضض: (أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين) سورة الماعون: ١-٣ وكثيرا ما نجد صورا لمثل هؤلاء الذين أثروا عبر وسائل لا أخلاقية وغير مشروعة كأن تكون أموالهم قد اكتسبت عن طريق الرشوة أو من خلال معاملات فاسدة الأخرى، فيجمعون الفوائد الظالمة، ويغتصبون مال اليتيم، ولا يسدون لفقير أو صاحب حاجة معروفا، وقد يسعون في إذلال الناس وسلبهم كرامتهم. وعندما يريدون فعل شيء من الخير تنعكس عليه ظلمة قلوبهم فتفسده وتحبطه، وهذه هي أمارات الذلة في أجل صورها. وقد استخدم الباريء سبحانه كلمة "الذلة" ليصف لنا مهانتهم وخذلاهم: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كانما أغشيث وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) سورة يونس: ٢٦-٢٧ إن تحلي المؤمنين بأسمى الأخلاق وأرفعها يزيدهم نضارة وبهاء، بينما ينزع نور الإيمان من وجوه المنكرين الجاحدين. وطبيعي أن يحاسب كل فريق على ما قدمت يداه بعد المرور بتجربة هذه الحياة، فيجازى المحسنون ويعاقب المفسدون. وكم حاول الكفار بأساليبهم الماكرة ومواقفهم الآثمة أن يصدوا

المؤمنين عن سبيل الهدى! ولو حل مثلا أحد الناس ضيفا على بيت واحد من هؤلاء الجاحدين فإن أعمال المضيف هذا لن تفلح في بعث الراحة في نفس المؤمن مهما قدم من صنوف الطعام والمأكل، فكيف لو عرف الضيف أن حياة هذا الرجل تمثل سلسلة من الانتهاكات لأحكام الله وأوامره. إن الظلم الذي يوقعه باليتيم والفقير يلوث الطعام الذي يقدمه لضيفه. ويفضل المؤمنون حساء بسيطا أعد من مال حلال على وجبة دسمة أعدت من مال حرام. وبالمثل لو دعي ضيف للجلوس على أريكة وقد عرف أنها اشتريت من مال مشبوه فإنه يثقل عليه الجلوس عليها، بل ويشعر أن كل ما في البيت هو ثمرة استغلال للضعفاء ونهب للمال الحرام، ولو بدا كل شيء في الظاهر نظيفا أنيقا، فلن يخضع أنف الضيف أن يشم رائحة عفنة متفشية في المكان تعكس الخواء الروحي لصاحبه وتقلق الضيف وتقض مضجعه. سيتعرض آكلو السحت هؤلاء و سماعو البهتان لمهانة دنيوية وأخروية يراها الآخرون بادية عليهم وفق ما أنبأنا به القرآن الكريم: (... ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين له يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم) سورة المائدة: ٤١ فمثل هؤلاء لا يذوقون للسعادة طعما ولا يسعد بهم من حولهم. لإصرارهم على ارتكاب المنكر والمحرم من الأعمال ويتجردون من فضيلة الحياء لإصرارهم على انتهاك حرمات الله عز وجل، واليوم ترى أناسا كثيرين من هؤلاء منغمسين في الرذيلة والفساد مستفيدين من شيوعها وكثرتها. فهؤلاء القوم انخلعوا من ربقة الإنسانية ووصلوا إلى نقطة انعدام الشرف والكرامة، وأخطر شيء أن الذين احترفوا الفاحشة من الجنسين يحاولون جاهدين أن يجروا غيرهم إلى حمأتها، ولكن الله تعالى لهم بالمرصاد، إذ يبتليهم بالأمراض التي لم تكن في أصلابهم والمصائب والحرمان والمهانة والاحتقار، وتبدو خستهم واضحة للآخرين. ويعطي الله تعالى وصفا دقيقا لحالة هؤلاء الأشقياء في النار يقدمه للمؤمنين الذين عانوا ابتلاءات الحياة الدنيا وعرفوا أسرارها فتشرق وجوههم نضارة لعظم ما ينتظرهم من رضوان الله تعالى في الآخرة .
أما أولئك الأشقياء الذين يعانون الآن الخسارة الأبدية وقد اعتزلهم أقرب الناس إليهم، فكل ما يستطيعون فعله وقد أحاطت النيران بهم ؛ نظرات ملؤها المهانة وهم يطلعون على المؤمنين وقد نالوا من نعم الله في دار كرامته بما لا نهاية لفضله ومدده: (وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين في عذاب مقيم) سورة الشورى: ٤٥

استمرار الامتحان حتى الموت

يبقى الإنسان رهن الامتحانات يكابدها حى يوافيه الأجل، فعلى الناس أن يجعلوا كل لحظة من حياتهم منسجمة مع أوامر الله تعالى ذاكرين جلال عظمته سبحانه ملتزمين بطاعته. وهناك أمر مهم يتعين فهمه جيدا، فلو أن كل من على الأرض تركوا سبيل الإيمان وكفروا بالله ما ضر ذلك الله تعالى مقدار ذرة، ولو أن أحدهم طيلة حياته عمل عملا صالحا، ثم تولى على عقبيه في آخر عمره ووافاه الأجل وهو على ذلك لحبط جميع عمله و لنال غضب الله عز وجل، فالعبرة بالخواتم. فعلى المؤمنين أن يأخذوا حذرهم، فالشيطان عدوهم وعدو الإنسانية الأول لن يدخر وسعا في استغلال أماكن ضعفهم وأوقات غفلتهم حتى لحظة رحيلهم ليغويهم عن الصراط المستقيم، ولهذا كانت لحظة الموت من أخطر اللحظات، أما أن يقول قائل: أنا مؤمن بالله عز وجل وعملت ما بوسعي لنيل رضاء ربي، وقد أمنت لنفسي النجاة والخلاص، فهو في وهم وغرور. والقرآن الكريم يخاطبك يا من أردت النجاة ألا تنقطع عن عبادة ملؤها الخوف من الله تعالى والطمع في رحمته حتى لحظة الفراق الحاسمة: (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون) سورة السجدة: ١٩ وليتفكر كل مسلم في هذا الأمر مليا: (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) سورة آل عمران: ١٠٦

الذين آمنوا ثم ارتدوا على أعقابهم

يعتبر الإيمان من أعظم نعم الله على المؤمنين، فبه تتحقق السعادة والرضا في الدنيا والنجاة والفوز في الآخرة، لذا وجب علينا أن نشفع كل نعمة أسديت إلينا بالثناء على الله سبحانه، وعلينا أن نقدر نعمة الإيمان التي هي أعظم النعم. وعلى المؤمنين الذين حفظهم الله برحمة منه أن يدعوا هذا الدعاء الذي يردده أهل الجنة: (ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا
الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) سورة الأعراف: ٤٣ ويكون الثناء على الله تعالى بالتلفظ بالشكر، والقيام بالأعمال التي ينال بها رضوان الله تعالى. وبما أن الصلاة هي شكر على نعمة الإيمان فعلى المؤمنين أن يؤدوها بعناية واهتمام وحضور قلب اعترافا بجميل صنع الله لهم عاملين أقصى ما بوسعهم لنيل رضاه متبتلين له في محراب العبودية الحقة الصادقة. وفي المقابل، لو ظنوا خطأ أن ما هم عليه من طاعة سيوصلهم بالضرورة إلى الجنة، أو لو نسوا أنهم رهن اختبار فربما فقدوا هذه النعمة، وهيهات أن تعود إن زالت. وقد تقسو قلوبهم. كما صرح القرآن بذلك ثم ينكرون خالقهم عز وجل، وعندها يحبط كل ما قدموه من عمل ويذهب هباء منثورا، ويكون زرعهم الذي زرعوا فسادا وبورا. وقد أوضح الله تعالى لنا هذه الحقيقة في أكثر من آية: (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة واولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) سورة البقرة: ٢١٧ (ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) سورة الزمر: 65 (ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فاصبحوا خاسرين) سورة المائدة: 53 وأخبرنا الله تعالى في القرآن الكريم كذلك عن بعض المؤمنين الذين ارتكسوا في إيمانهم بعد أن كانوا صالحين وعن انحرافهم عن جادة الحق بعد أن كانوا مهتدين. (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا) سورة النساء : ١٣٧ (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هو الضالون) سورة آل عمران: ٩٠ ووصف حالتهم في الدار الآخرة كذلك بقوله: (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) سورة آل عمران: ١٠6 توضح لنا الآيات السابقة خطر ترك الإيمان واتباع طريق الهوى والضلال. فقد تجد أناسا يمضون شطر حياتهم مؤمنين بوجود الخالق عز وجل منسجمين مع أوامره ثم تهزمهم النفس الأمارة مبعدة إياهم عن دين الله حتى يصلوا إلى درجة إنكار الخالق عز وجل، وقد يفوق جحودهم جحود الآخرين. ذلك لأنهم عرفوا الحق وعايشوه وفقا لمراد الله تعالى ابتداء ثم ارتدوا بعدها على أعقابهم فذهبت أعمالهم هباء منثورا. لذا وجب على الناس ألا ينسوا ولو للحظة واحدة خضوعهم للاختبار ما بقوا على وجه الأرض وأن الابتلاءات لا حدود لها، و إلا فالشيطان لا يكف عن محاولات إغوائهم عن صراط ربهم المستقيم عبر سلسلة من الوعود الزائفة والشكوك المريبة. أما إنكار الألوهية بعد معرفة الإيمان فهو السبيل إلى الشقاء السرمدي. فالذين نبذوا الإيمان يعيشون حياة ضنك وعذاب روحي إلى أن توافيهم آجالهم رغم امتلاكهم أكثر أعراض الحياة الدنيا كالثروة وأسباب الراحة. وبما أنهم عرفوا الحق فهم يحاولون جاهدين كبت أي نداء منبعث من أعماق ضمائرهم ليبقى إحساس الإثم يحرق أرواحهم وهيهات أن يقارن ألم يعانونه في هذه الحياة مع ما سيلقونه بعد الموت: (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين) سورة آل عمران: ٩١ فعلى المؤمنين أن يتنبهوا ما دامت هذه الأخطار محدقة بهم، فلا يغفلوا عنها حن اللحظة الأخيرة من آجالهم خوفا من الارتداد على الأعقاب . فالإحساس بالطمأنينة منع الإنسان من التزود من العمل الصالح. والاعتقاد بأن الجنة مضمونة يدفع صاحبه إلى التقهقر والتراجع، وصف القرآن الكريم ذلك بقوله: (كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى) سورة العلق: 6-7 فاحرص أن تجعل الخطر ماثلا بين عينيك، وقدم من الأعمال ما يرضي ربك عز وجل، فالرحلة مضنية والابتلاءات لا تنقطع حتى الرمق الأخير من الحياة.

الذين تخلفوا عن الجهاد وهربوا منه

هناك أناس يعيشون بإيمان فطري أو بلا إيمان وكأن الأمور الجسام لا تعنيهم. فهم منسجمون مع مبادئ الإسلام عموما، ولكن الله بعدله أعد لهم ألوانا من الابتلاءات لتظهر حقيقة معدنهم وطويتهم. فالمسلمون الذين تحملوا آلام الشدائد والجوع والحاجة والمرض وفقد الممتلكات والأحباب، تقوي الابتلاءات إيمانهم وترسخه، بينما يتقهقر الذين في قلوبهم مرض مقتربين من
الكفر مع انقضاء كل دقيقة من حياتهم. وتبرز لنا هذه الحقيقة أهمية كل لحظة من حياة الإنسان فقد يقضي بعض الناس جل حياتهم مؤمنين بالله تعالى عاملين على إعلاء كلمته، مقدمين صالح الأعمال، ولكن إذا توقفوا عن الأداء الأمثل انسجاما مع فطرتهم السليمة يطول عليهم الأمد وتقسو قلوبهم وقد يفقدون ملكة التمييز بين الخير والشر وقد تطغى مشاغل الحياة وشؤونها على إحساسهم بضرورة متابعة العمل لنيل رضا الله عز وجل، وقد يتفاقم وضعهم فينحدرون سريعا نحو الجحود والكفر. وقد وصفت لنا العديد من الآيات جهاد الأنبياء عليهم السلام لحماية عامة المسلمين من بطش مجتمعاتهم وصونا لدين الله عز وجل، وكان الجهاد يمثل حينها بعدا تعبديا بالغ الأهمية. فرأينا كيف دخل محمد صلى الله عليه وسلم في صراع مرير مع ذلك المجتمع المشرك وكل مواجهة كانت تتم بأمر من الله سبحانه، ثم يتحمل عليه الصلاة والسلام تبعة مسؤوليتها، وسيطبع الله تعالى على قلوب أولئك النفر الذين حاولوا التملص من مسؤولياهم تجاه دينهم. لأن هذه الرغبة في الفرار تدل على حقيقة ضعف صلتهم بالإيمان. ويمضي كفاح المؤمنين في زماننا هذا ضد الكفرة في ميدان الفكر. فالمطلوب من المؤمنين التعمق في العلم والبحث لدحض جميع لشبهات
التي يسعى الملحدون إلى إلصاقها بالدين كوسيلة لإنكار وجود الخالق عز وجل، فكل مسلم يتحمل اليوم جزءا من المسؤولية، ولا يمكن لأي واحد اليوم أن ينأى بنفسه بعيدا وكأن الأمر لا يعنيه، ولا حتى أن يقف موقف الحياد. فهؤلاء الذين أبوا تحمل المسؤولية وصفهم القرآن الكريم بأن قلوبهم قاسية: (وإذا أنزلث سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استاذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) سورة التوبة: 86- 87 وهناك نموذج آخر ممن قدموا المعاذير عند مواجهة المشقات وأخمدوا نور

الإيمان في قلوبهم وهم يحاولون الفرار من مسؤولياتهم الجهادية: (لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون انفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون) سورة التوبة: ٤٢ تتجلى في هذه الأمثلة المستقاة من عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم وعهود من سبقوه من الأنبياء عليهم السلام أجمعين حقيقة مهمة مفادها أن

سنة الله تعالى في الاختبارات ماضية دون توقف ضمن سلسلة من الابتلاءات ليميز أهل الحق من المؤمنين عن أهل الضلال من المفترين. فيظهر ثبات وعزيمة المؤمنين أوقات الشدائد ويرتكس أولئك الذين خارت قواهم مبتعدين عن جادة الحق والدين، وحدث على عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم عندما كانت المعارك محتدمة بين المسلمين والكفرة أن أظهر بعض المسلمين خورا

وضعفا واجتاحتهم الريب المفزعة ظانين بالله تعالى غير الحق ويسرع الشيطان منتهزا فرصة ضعفهم ليبعدهم عن سبيل الحق: (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم) سورة آل عمران: ١٥٥ أبرزت هذه الواقعة درسا عظيما للمؤمنين حيث بين الله تعالى ضرورة تعرض الناس للابتلاءات ليميز الخبيث من الطيب وما من طريقة لتحمل مشقتها سوى الإيمان الصادق الراسخ بالله سبحانه وتعالى ومن رحمة الله بعباده المؤمنين الصادقين أنه يثبت أقدامهم وينزل السكينة والرضا في قلوبهم في فترات الشدائد، ومن الضروري أن يبقى هذا الاختبار ماثلا في ذاكرتنا. تجري سنته على الناس جميعا ليتمايز الخبيث من الطيب: (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) سورة العنكبوت: 2-3

الخاتمة

يدنو كل إنسان من لحظة أجله الحاسمة مع مرور كل دقيقة من الزمن. فمسألة السن ليس لها أهمية، والموت قريب من الصغار قربه من الكبار ولا فرق بينهما. فليس الموت أقرب من ابن الثامنة والستين عاما وهو ممدد على سرير المرض، ينتظر الموت، من الفتاة ذات الثامنة عشرة ربيعا تقطع قارعة الطريق وكم هي كثيرة حوادث السير الي تودي بحياة الكثيرين من المارة وما يدريك أن تكون هذه لحظة موتها أو موته، وهذه واحدة من أهم الحقائق وأخطرها في حياة الإنسان. ينهمك كل إنسان في سباق حميم لقطع مراحل متعددة ومتقدمة نحو حياة الآخرة فيما قدر لهم من فترات زمنية، هي مجمل آجالهم. وكما قال العلامة بديع الزمان رحمه الله تعالى: "إن هذه الدار الفانية هي إلا بمثابة مزرعة، وميدان تعليم". فالناس في هذه الدنيا يمكن أن يعقدوا صفقات تجارية رابحة مع الله تعالى لينالوا في الآخرة عوضا لا نهاية له، فأصحاب المنطق السليم يستمعون لنداء فطرتهم، مدركين أن لله مشيئة في دوام اختبارهم، عالمين مشقة الطريق. وكان نزول القرآن عونا وهداية لهم آخذين من بعثة الرسل الكرام معالم طريقهم الحق. فالذين ينيبون لربهم عز وجل بقلوب مؤمنة مخلصة سينعمون بالطمأنينة مهما واجهوا من مشقات حين تكتب لهم النجاة. ومن الأسرار المهمة الي تفصح عنها هذه الابتلاءات أنها مليئة بأعظم احتمالات الخير لكل المؤمنين . فينبغي أن يكون ديدن المؤمنين الرضا بما كشف لهم من مجريات القدر. والتزام أخلاق أهل التقوى من المؤمنين كما وصفوا في القرآن الكريم فهم متشبثون بإيمانهم بالله عز وجل، متحلين بالصبر والثبات أثناء تقدمهم نحو الحياة الآخرة الحقيقية: (وكاين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين * وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) سورة آل عمران: ١٤٦-١٤٧.

انهيار الداروينية

لقد ظهرت النظرية الداروينية، يعني نظرية التطور بهدف رفض فكرة الخلق، بيد أنها لم تنجح في ذلك، واعتبرت بمجرد سفسطة خارجة عن نطاق العلم. وهذه النظرية تدعي أن الكائنات الحية تولدت بطريق المصادفة من الكائنات غير الحية، وقد تم ردها ونقضها بعد أن أثبت العلم أن الكون والكائنات الحية تحتوي على أنظمة غاية في الإعجاز. وعلى هذا النحو أثبت العلم كذلك أن الله تعالى هو خالق الكون وخالق جميع الكائنات الحية. وهذه النظرية لا تقوم سوى على مناقضة الحقائق العلمية والأكاذيب الي ترتدي لباس العلم وجملة من التزييفات، وقد تم القيام بحملة واسعة على نطاق العالم لكي تبقى هذه النظرية قائمة على أقدامها، غير أن هذه الحملة لم تتمكن من إخفاء الحقيقة. لقد تعالت الأصوات خلال الثلاثين سنة الماضية في دنيا العلم تبين بأن الأبحاث الي نظرية التطور تمثل أكبر خديعة في تاريخ العلم. وقد أثبتت الأبحاث التي أجريت بشكل خاص اعتبارا من عام ١٩٨٠ بأن الإدعاءات الداروينية عارية تماما من الصحة، وقد تم التصريح بذلك من قبل العديد من كبار رجال العلم. ففي الولايات المتحدة بشكل خاص، صرح الكثير من علماء البيولوجيا والكيمياء الحيوية وعلم الحفريات وغيرها من العلوم الأخرى بأن الداروينية وصلت إلى طريق مسدود وأن أصل الكائنات الحية هو الخلق. واليوم تؤكد التطورات العلمية بأن الكون وجميع الكائنات الحية قد خلقت من قبل الله تعالى. لقد تناولنا مسألة انهيار نظرية التطور ودلائل الخلق في مواضع كثيرة من أعمالنا، وسوف نواصل ذلك في أعمال أخرى. ولكن بالنظر إلى الأهمية البالغة الي يكتسيها هذا الموضوع رأينا أنه من الفائدة إيراد ملخص لذلك في هذا الموضع أيضا.

الانهيار العلمي للنظرية الداروينية

بالرغم من أن هذه النظرية تعود في جذورها إلى التاريخ الإغريقي القديم، إلا أنها شهدت أوسع انتشار لها في القرن التاسع عشر . كان أهم تطور شهدته النظرية هو صدور كتاب تشارلز داروين "أصل الأنواع" الذي صدر عام ١٨٥٩. في هذا الكتاب ينكر داروين أن الأنواع المختلفة على الأرض قد خلقها الله، يقول داروين أن جميع الكائنات الحية لها جد مشترك وأنها قد تنوعت واختلفت بسبب اختلافات طارئة متدرجة أتت عليها عبر الأزمان. وكما يقر داروين نفسه، فإن نظريته لا تقوم على أي حقيقة علمية ثابتة، بل إنها مجرد "إفتراض". علاوة على ذلك، يعترف داروين في فصل مطول من كتاب بعنوان "المصاعب اليي تواجهها النظرية" أن النظرية تتهاوى أمام العديد من الأسئلة الحرجة. عقد داروين آماله على الاكتشافات العلمية الي كان يظن أها ستزيل العقبات الي تواجهها نظريته، إلا أن ما أثبتته هذه الاكتشافات جاء عكس ما تمناه الرجل. وتظهر هزيمة داروين أمام العلم الحديث من خلال ثلاث نقاط رئيسية:

1- لم تتمكن هذه النظرية بأي وسيلة من الوسائل أن تفسر كيف نشأت الحياة على وجه الأرض.

2- لا يوجد أي اكتشاف علمي يدل على قدرة "التقنيات التطورية" الي تفترضها النظرية على التطور في أي حال من الأحوال.

3- مايثبته السجل الإحاثي هو عكس الادعاءات التي تقوم عليها نظرية التطور.

سنناقش في هذا الفصل هذه النقاط الثلاث الرئيسية:

العقبة الأولى التي لم تذلل: أصل الحياة تقول نظرية التطور أن جميع الكائنات الحية قد تطورت عن خلية وحيدة ظهرت على سطح الأرض البدائية منذ ٣,٨ ملايين سنة، ولكن كيف يمكن لخلية وحيدة أن ينشأ عنها الملايين من الأنظمة والأنواع الحية؟ وإذا كان هذا التطور قد حدث فعلا فلماذا لم تظهر علائمه في السجلات الإحاثية ؟ هذا سؤال لم تتمكن النظرية الإجابة عليه. إلا أن السؤال الأول الذي بقي يواجه هذه النظرية، الي لم تجد جوابا عليه حتى الآن، هو كيف نشأت "الخلية الأول". تفسر نظرية التطور، التي لا تعترف بالخلق ولا تقبل بوجود خالق، نشوء الخلية الأولى على أنها أتت عن طريق الصدفة الي تتضمنها قوانين الطبيعة. حسب هذه النظرية تكون المادة الحية قد نشأت من مادة غير حية نتيجة للعديد من المصادفات، ومن المؤكد أن هذا الزعم لا يتوافق مع أبسط قواعد علم الأحياء.

الحياة تنشأ من الحياة

في هذا الكتاب، لم يتطرق داروين إلى أصل الحياة. فقد كان الفهم البدائي لحقيقة الحياة في عصره يعتمد على الإفتراض بأن الكائنات الحية ذات بنيات بسيطة جدا، لقد لاقت نظرية النشوء التلقائي الي انتشرت في القرون الوسطى، والتي تقول أن المواد غير الحية تجمعت من تلقاء نفسها لتشكل كائن حي، رواجا واسعا في ذلك الزمن. من الاعتقادات التي نتجت عن هذه النتيجة هي أن الحشرات تنشأ عن بقايا الطعام، وأن الجرذان تأتي من القمح. هنا يجدر بنا أن نتعرض لتجربة مضحكة قام بها البعض، حيث تم وضع بعض القمح على قطعة وسخة من القماش، وكان المنتظر أن يخرج جرذا بعد برهة من الزمن. ومن المنطلق ذاته كان يعتقد أن الديدان تخرج من اللحم؛ إلا أنه لم يلبث العلم أن أثبت أن الديدان لا تخرج من اللحم بشكل تلقائي، وإنما يحملها الذباب بشكل يرقانات لا ترى بالعين المجردة. كان هذا الاعتقاد سائدا في الزمن الذي كتب فيه داروين كتاب "أصل الأنواع" ، فقد كان يعتقد بأن البكتريا جاءت إلى الوجود من مادة غير حية وكان هذا الاعتقاد مقبولا علميا. لم يطل الوقت حين أعلن باستور نتائج دراساته الطويلة وأبحاثه الكثيرة الي تدحض أساس نظرية داروين، قال باستور في محاضرته الي أعلن فيها عن انتصاراته في السوربون عام ١٨٦٤: لا يمكن أن تستفيق نظرية النشوء التلقائي من الضربة الصاعقة التي أصابتها بها هذه التجربة البسيطة."[10] . قاوم المدافعون عن النظرية الداروينية اكتشافات باستور لوقت طويل.

إلا أن ماجاء به باستور بالإضافة إلى ما كشف عنه التقدم العلمي من البنية المعقدة لخلية المادة الحية، أبقيا فكرة وجود الحياة على سطح الأرض عن طريق الصدفة في مأزق لم تستطع الخروج منه.

المحاولات العاجزة في القرن العشرين

إن أول من تبين موضوع منشأ الحياة في القرن العشرين كان التطوري المشهور ألكسندر أوبارين، تقدم هذا العالم بالعديد من الآراء العلمية في الثلاثينيات من ذلك القرن، حاول من خلالها إثبات إمكانية تطور خلية الكائن الحي عن طريق الصدفة. إلا أن دراساته لم تنته إلا بالفشل، مما حدا بأوبرين تقديم الاعتراف التالي: " للأسف، بقيت مشكلة منشأ الخلية الأولى أكثر النقاط غموضا في دراسة تطور الأنظمة الحية[11] . حمل التطوريون بعد أوبرين مسؤولية حل مشكلة منشأ الحياة. وكان أكثر هذه التجارب شهرة تلك الي قام بها الكيميائي الأمريكي ستانلي ميللر عام ١٩٥٣. قام هذا العالم بدمج عدد من الغازات الي يفترض أنها كانت موجودة في المناخ البدائي للأرض، وأضاف إليها مقدار من الطاقة. من خلال هذه التجربة تمكن ميللر من تركيب عدد من الحموض الأمينية (الجزيئات العضوية) الي تتواجد في تركيب البروتينات. إلا أنه لم تمض عدة سنوات حتى ثبت بطلان هذه النظرية، التي كانت تعتبر خطوة رائدة في تقدم نظرية التطور، فالمناخ الذي استخدم في هذه التجربة كان مختلفا جدا عن الظروف الأرضية الحقيقية[12] . وبعد فترة من الصمت اعترف ميللر أن المناخ الذي استخدمه في تجربته كان غير حقيقيا[13] . لقد باءت جميع محاولات التطوريين في إثبات نظريتهم في القرن العشرين بالفشل، يعترف العالم الجيولوجي بادا من معهد سكريبس في سانت ياغو بهذه الحقيقة في مقالة نشرها بمجلة "الأرض" عام ١٩٩٨: "ها نحن اليوم نغادر القرن العشرين دون أن نتمكن من حل المشكلة التي بدأنا القرن معها وهي : كيف بدأت الحياة على الأرض[14]؟

البنية المعقدة للحياة

السبب الرئيسي الذي أوقع نظرية التطور في مأزق "كيف بدأت الحياة" هو أن الكائنات الحية، حتي - البسيطة منها، تنطوي على بنيات في غاية التعقيد. فالخلية الواحدة من الكائن الحي أكثر تعقيدا من أي منتج تقني صنعته يد البشر. فحتى يومنا هذا لا يمكن لأي مختبر كيميائي مهما بلغت درجة تطوره أن ينجح في تركيب خلية حية من خلال تجميع عدد من المواد العضوية مع بعضها.

إن الظروف المطلوب توفرها لتركيب خلية حية هي أكثر بكثير من أن تعرض. فإمكانية تركيب أحد البروتينات التي تعتبر حجر الأساس في الخلية بشكل عشوائي هي 1 إلى 10^{950} وهذا بالنسبة لبروتين مكون من ٥٠٠ حمض أميني؛ وفي الرياضيات يعتبر أي احتمال أصغر من 150 مستحيلا . إن جزيء ال DNA الذي يتواجد في نواة الخلية والذي يخزن المعلومات الوراثية، هو في حد ذاته بنك معلومات معجز. فلو أن المعلومات المشفرة في جزيء DNA قد أفرغت كتابة فإنها ستشغل مكتبة عملاقة مكونة من ٩٠٠ مجلدا من الموسوعات كلا منها يتألف من 500 صفحة.

هنا تنشا مشكلة أخرى مثيرة: فجزي ال DNA لا يمكنه أن يتضاعف إلا بمساعدة بعض البروتينات المختصة (الأنزيمات)، وهذه الأنزيمات لا يمكن أن تتشكل بدورها إلا من خلال المعلومات المشفرة في جزيء ال DNA. وبما أن كل منهما يعتمد على الآخر ، فمن الضروري أن يتواجدا في الوقت نفسه عند عملية التضاعف.وهذا يأتي بالنظرية القائلة أن الحياة قد نشأت من تلقاء نفسها إلى طريق مسدود. وقد اعترف البروفسور ليسلي أورجيل ، وهو تطوري مشهور من جامعة سانت ياغو كاليفورنيا بهذه الحقيقة من خلال موضوع نشر في بمجلة العلوم الأمريكية عام 1994 : "من المستحيل أن تكون البروتينات والحموض الآمينية، وكلاهما جزيئات معقدة، قد نشأت من تلقاء نفسها في نفس الوقت وفي نفس المكان. أضف إلى عدم إمكانية تواجد أحدهما دون الآخر . وهكذا ومن النظرة الأولى يجد أحدنا أنه من المستحيل أن تكون الحياة قد نشأت من خلال عمليات كيميائية بحتة[15] . لا شك أنه إذا كان من المستحيل أن تنشأ الحياة من أسباب طبيعية، فلا بد أنها قد "خلقت" بيد خالق. هذه الحقيقة تلغي نظرية التطور ، والتي تهدف بالدرجة الرئيسية إلى إنكار الخلق، من أساسها.

الأفكار الخيالية لنظرية التطور

النقطة الثانية الي تدحض نظرية داروين هي أن كلا المفهومين اللذين وضعتهما النظرية ك "تقنيات تطورية" ثبت أنها في الحقيقة لا تملك أي قوة تطورية. لقد اعتمد داروين في خدعة التطور التي خرج بها على فكرة "الإصطفاء الطبيعي". وقد ضمن هذه الفكرة في كتابه: "أصل الأنواع ، عن طريق الاصطفاء الطبيعي... يقول قانون الاصطفاء الطبيعي أن الكائنات الحية الي تمتلك خصائص قوية فقط هي الي يمكن أن تبقى في معركة الحياة. على سبيل المثال، عندما هاجم الحيوانات المتوحشة قطيعا من الغزلان، فإن الغزلان الأقوى والتي يمكنها أن تركض بسرعة أكبر هي الي ستنجوا وتبقى على قيد الحياة. وهكذا يتشكل قطيع جديد من الأقوياء والسريعين فقط. ولكن، ولنفترض أننا سلمنا هذا جدلا، فهل مكن هؤلاء الأقوياء من قطيع الغزلان أن يتطوروا باي شكل من الأشكال ليصبحوا خيولا مثلا؟ بالطبع لا. لذلك نقول أن هذه الفكرة لا قوة تطورية لها. داروين نفسه كان قلقا بشأن هذه الحقيقة التي وضعها في كتابه أصل الأنواع حيث قال: "لا يمكن لقانون الاصطفاء الطبيعي أن يحقق شيئا مالم تحدث تغييرات فردية إيجابية[16] .

تأثير لامارك

ولكن كيف تحدث هذه "التغيرات الإيجابية"؟ حاول داروين الإجابة على هذا السؤال من خلال الفهم البدائي للعلوم في ذلك الوقت. فحسب نظرية لامارك الذي عاش قبل داروين، فإن الكائنات الحية تورث صفاتها التي اكتسبتها خلال حياتها إلى الأجيال التالية ، وهذه الصفات تتراكم من جيل إلى آخر لتشكل أنواعا جديدة من الكائنات الحية، فحسب لامارك، الزرافات هي كائنات تطورت عن الظباء عندما كانت تجاهد من أجل الوصول إلى الثمار الي تحملها الأشجار العالية، فطالت رقبتها من جيل إلى آخر حتى استقرت على هذا الطول. وباقتفاء أثره، أورد داروين مثالا مماثلا في كتابه فقال أن الدبب غطست في الماء أثناء بحثها عن الطعام فتحولت إلى حيتان على مر الأجيال . إلا أنه ما لبث أن ظهرت قوانين الوراثة على يد العالم ماندل في القرن العشرين، مما أحبط أسطورة امتداد الصفات عبر الأجيال. وهكذا سقط الاصطفاء الطبيعي كدعامة من دعامات نظرية التطور.

الداروينية الجديدة والطفرات

ومن أجل الوصول إلى حل، قام الداروينيون بتطوير "نظرية تركيبية جديدة" أو ما يدعى ب "الداروينية الجديدة" في نهاية الثلاثينيات من القرن العشرين. أضافت الداروينية الجديدة نظرية "الطفرات"وهي تشوهات جينية تطرأ على الكائن الحي وتحدث بفعل تأثيرات خارجية مثل التعرض إلى الإشعاعات وأخطاء في تضاعف الـ DNA، بالإضافة إلى الطفرات الطبيعية. و النموذج الذي يقف مدافعا اليوم عن نظرية التطور هو الداروينية الجديدة.تقول هذه النظرية الجديدة أن الملايين من الأحياء المتواجدة على سطح الأرض قد جاءت نتيجة لطفرات طرأت على الأعضاء المعقدة لهذه الكائنات مثل الآذان والعيون والرئات والأجنحة، أي إضطرابات وراثية. إلا أن الحقيقة العلمية تأتي في عكس الاتجاه المطلوب. فالطفرات لم تكن في يوم من الأيام إيجابية تؤدي إلى تقوية وتعزيز القدرة الحيوية الكائن الحي، وإنما إلى إهلاكها وإضعافها.. والسبب وراء هذا ببساطة هو أن جزيء DNA يحمل بنية معقدة جدا وأي تغيير عشوائي فيها سيؤدي ضررا كبيرا، يشرح عالم الجينات رانغاناتان الموضوع كالتالي:

"أولا، الطفرات الجينية نادرة الحدوث. ثانيا الطفرات في معظمها ضارة ومهلكة في بعض الأحيان لأنها تغيرات عشوائية ، وأي تغير غير منظم، علاوة على المنظم ، في أي كائن حي راقي ينحدر به نحو الأسوء ولا ترتقي به إلى الأفضل. فالهزة الأرضية التي قد تصيب أحد الأبنية على سبيل المثال، ستتسبب في تغيير في الإطار العام لها، وهذا بالطبع ما لن يكون تحسينا في البناء[18] .

لهذا ليس غريبا غياب أي دليل على وجود طفرة كانت السبب في تغيير الشفرة الوراثية نحو الأفضل، على العكس فجميع الطفرات كانت ناكسة . أصبح واضحا إذا أن الطفرة التي اعتبرت من تقنيات التطور لا تجلب على الكائن الحي إلا المزيد من الضعف وتجعله عاجزا. (من التأثرات الشائعة للطفرة في العصر الحديث مرض السرطان). وطبيعي أن لا تكون تقنية مدمرة من تقنيات "التطور"، كما لا يمكن ل الاصطفاء الطبيعي " أن ينجزشيئا بنفسه، وهذا يعني أنه لا يوجد تقنيات تطور في الطبيعة. وبانتفاء وجود هذه التقنيات تنتفى عملية التطور.

السجلات الإحاثية   لا دليل على وجود أشكال مرحلية

في الحقيقة لا يوجد أي دليل في سجل المستحاثات على أكثر الادعاءات وضوحا في سيناريو نظرية التطور. حسب نظرية التطور، فإن كل كائن حي قد نشا عن كائن قبله، أي أن الكائنات السابقة قد تحولت إلى كائنات أخرى، وكل الأنواع نشأت بهذه الطريقة. وحسب النظرية، فإن هذه التحولات استغرقت ملايين السنين. وإذا كان هذا الافتراض حقيقي ، فمن الضروري وجود عدد كبير من الأنواع المرحلية التي عاشت في فترة التحول الطويلة. على سبيل المثال لابد من وجود كائن نصفه سمكة ونصفه سلحفاة يحمل صفات السلحفاة بالإضافة إلى صفات الأسماك التي يحملها أصلا. أو كائنات نصفها طير والنصف الآخر زواحف، أي تحمل بعض صفات الطيور بالإضافة إلى صفات الزواحف التي تحملها أصلا، وبما أنها في الطور المرحلي، فهي كائنات عاجزة غير مؤهلة، أومعاقة؛ ويطلق التطوريون على هذه الأشكال الخيالية إسم "الأشكال التحولية" لو كان هناك حيوانات كتلك حقا، فيجب أن يكون هناك الملايين بل البلايين منها وبشكل متنوع، والأهم من ذلك يجب أن تحمل سجلات المستحاثات بقايا هذه الأحياء الغريبة. يقول داروين في كتابه "أصل الأنواع. "إذا كانت نظريتي صحيحة، فلابد من وجود عدد كبير من الأنواع المختلفة الي تصنف ضمن فئة واحدة، وهذا الوجود ستثبته السجلات الإحاثية[19]".

آمال داروين تتبدد

بالرغم من جميع محاولات التطوريين الجادة في إيجاد مستحاثات تدعم تصوراهم في وجود مخلوقات تحولية في منتصف القرن العشرين في جميع أنحاء العالم، إلا أنهم لم يجدوا أيا منها . لقد أثبتت جميع المستحاث التي اكتشفت أثناء الحفريات الجيولوجية عكس ما قالت به النظرية الداروينية تماما: لقد نشأت الحياة فجأة وبتشكل تام لا وجود لأي شكل تحولي. أقر أحد علماء التطور، العالم الإنجليزي ديريك آغرDerek Ager هذه الحقيقة عندما قال: النقطة هي أننا عندما قمنا بتقصي السجل الإحاثي بالتفصيل سواء على مستوى الأنواع أو الترتيب الزمني المرة تلو المرة، لم نجد تطور تدريجي أو مرحلة انتقالية، وإنما ظهور مفاجيء لمجموعة من الكائنات على حساب أخرى. هذا يعني أن السجل الإحاثي يبرهن أن جميع الكائنات الحية قد ظهرت على الأرض بشكل مفاجيء بأشكالها التامة، ودون أي طور تحول، وهذا عكس الإدعاء الداروين تماما وإثبات قوي على حقيقة الخلق. فالتفسير الوحيد لنشوء الكائنات الحية بشكل مفاجئ على سطح الأرض بشكلها

الكامل ودون تطور عن أجداد سابقين، إنما يعني أن هذه الأنواع قد خلقت خلقا. ويقر هذه الحقيقة عالم الأحياء التطوري دوغلانس فيوتوعما: "الخلق والتطور، وبينهما التفسيرات المحتملة عن أصل الكائنات الحية. فإما أن تكون الأنواع قد ظهرت على سطح الأرض بتكوينها الكامل، أو لا تكون. إذا لم يكن الأمر كذلك فهذا يعني أنها قد تطورت عن أنواع وجدت مسبقا من خلال بعض عمليات التحول. أما إذا كانت قد ظهرت بشكلها الكامل ، فلابد أنها قد خلقت خلقا" والمستحاثات تثبت أن الكائنات الحية قد نشأت بشكلها المكتمل على سطح الأرض، وهذا يعني أن "أصل الأنواع" ليس كما يدعي داروين، إنه خلق وليس تطور.

قصة تطور الإنسان

الموضو ع الذي يحاول مؤيدوا نظرية التطور الكلام به دائما هو موضوع أصل الإنسان، يدعي الداروينيون أن الإنسان الحالي قد تطور عن نوع من أشباه القردة، وخلال هذه العملية التطورية المزعومة، التي يفترض أنها استغرقت من 4- 5 ملايين عاما، ظهرت "أشكال تحولية" تفصل . الإنسان الحديث وأجداده، كما يزعمون. وحسب هذه الصورة الخيالية البحتة، صنفت هذه الأشكال في أربعة فئات:

1- أو سترالو بيثيكوس 2- هومو هابيليس.

3- هورمو أريكتوس 4- هومو سابينس

يطلق التطوريون على الجد الأول للإنسان " أوسترالوبيثيكوس" ويعني "قرد جنوب إفريقيا"، والحقيقة هو أن هذا المخلوق ليس إلا نوعا من القرود القديمة المنقرضة. أثبتت الأبحاث الواسعة الي أجراها عالما التشريح ، اللورد سولي زوكرمان والبروفسور تشارلز أوكسنارد، من إنكلترا والولايات المتحدة، على مستحاثات أوسترالو بيثيكوس أن هذه المستحاثات تعود إلى أنواع عادية من القردة الي انقرضت والتي لا تحمل أي شبه مع الإنسان[22] . والفئة الثانية الي يصنفها التطوريون هي "هومو" وتعني "الإنسان" وحسب نظرية التطور، فإن سلالة الهومو أكثر تطورا من سلالة أوسترالو بيثيكوس. وهنا اخترع التطوريون خطة مثيرة بتركيبهم لهذة مستحاثات من هذه المخلوقات ووضعها بترتيب معين. إلا أن تلك الخطة خيالية لأنه لم يثبت وجود أي علاقة تطورية بين هذه الفئات المختلفة، يقول أحد أهم المعلقين على نظرية التطور إيرنست ماير في كتابه "من المناظرات الطويلة: " تعتبر الأحجية التاريخية الي تتكلم عن أصل الحياة أو أصل الهوموسابينس أحجية صعبة حتى أنها تتعارض مع الاكتشافات الأخيرة[23]. ومن خلال السلسلة الي وضعها التطوريون فإن الفئات الأربع: أو سترالو بيثيكوس، هومو هابيليس، هومو أريكتوس، هوموسابينيس ناشئة عن بعضها البعض. إلا أن الاكتشافات الأخيرة التي ظهرت على يد علماء المستحاثات البشرية قد أثبتت أن هذه الفئات الأربع أوسترالو بيثيكوس ، هومو هابيليس، هومو أريكتوس، هومو سابينيس قد عاشت في بقاع مختلفة من العالم وفي زمن واحد[24]. علاوة على هذا، فإن الأجزاء البشرية الي صنفت في فئة "هومو أريكتوس" لم تنقرض حتى وقت قريب جدا، أما النياندرتاليين والهوموسابينيس فقد تعايشوا في زمن واحد وفي منطقة واحدة[25]. هذا الاكتشاف يدحض الادعاء بأن أحد منهم يمكن أن يكون جدا للآخر. يفسر عالم الأحياء القديمة ستيفن جاي غولد Gould Stephen Jay من جامعة هارفارد النهاية المسدودة التي وصلت إليها نظرية التطور، بالرغم من أنه عالم تطوري: ماذا سيكون مصير فكرتنا إذا كان هناك تزامن معيشي لثلاث من فئات الهومو (الإفريقي والأوسترالوبيثيكوس القوي والهومو هابيليس) وثبت أن إحدا منهم لم ينشأ عن الآخر؟ أضف إلى أن أحدا من هؤلاء لم يثبت عليه أي تحول تطوري خلال فترة حياته على سطح الأرض[26]. نقول باختصار، أن سيناريو التطور البشري الذي ينص على وجود مخلوق نصفه إنسان ونصفه قرد والذي قام على استخدام العديد من الصور الخيالية اليي ظهرت في الكتب الدعائية لنظرية التطور، ليست إلا قصة لا أساس لها من الصحة العلمية. وبالرغم من كون العالم سولي زوكرمان، الأكثر شهرة في المملكة المتحدة، عالما تطوريا، إلا أنه اعترف في نهاية أبحاثه، التي استغرقت عدة سنوات والي تناولت بشكل خاص مستحاثات أوستر الو بيثيكوس لمدة 15عاما، أنه لا يوجد شجرة بشرية تتفرع عن مخلوقات شبيهة بالقرود. صنف زوكرمان العلوم ضمن طيف أسماه "طيف العلوم" يتدرج من العلوم الي يعتبرها علمية لينتهي في العلوم الي يعتبرها غير علمية. وحسب طيف زوكرمان، فإن أكثر العلوم "علمية" أي الي تقوم على بيانات

ومعلومات ملموسة- هي الفيزياء والكيمياء، تليهما العلوم البيولوجية وفي الدرجة الأخيرة العلوم الاجتماعية، وفي نهاية الطيف تأتي العلوم "غير العلمية" والي يحتل مكانها "الإدراك الحسي المفرط" وهى مفاهيم الحاسة السادسة والتيليباثي (التخاطر عن بعد) ويليها "التطور البشري". ويشرح لنا زوكر عمله هذا: نحن هنا إذا نتحول من الحقيقة المسجلة موضوعيا إلى تلك المجالات

الي يشغلها علم الأحياء الافتراضي، مثل الإدراك الحسي المفرط، أو التفسير التاريخي للمستحاثات الإنسانية، والتي يبدو فيها كل شيء جائز بالنسبة للتطوري، حيث يكون التطوري مستعدا لتصديق العديد من الأمور المتناقضة في وقت واحد[27]. لقد انحدرت قصة التطور البشري لتصل إلى مستوى التفسيرات المتحيزة لبعض المستحاثات التي استخرجها بعض الأشخاص الذين تعلقوا هذه النظرية بشكل أعمى.

المعادلة الداروينية

إلى جانب كل ما تناولناه إلى الآن من أدلة تقنية ، نود أن نوجز إن شئتم وبمثال واضح بحيث يمكن حتى للأطفال أن يفهموه ، كيف أن التطوريين أولو عقيدة خرفاء فاسدة . تزعم نظرية التطور أن الحياة تشكلت محض صدفة؛ وعليه وطبقا لهذا الزعم فإن الذرات الجامدة وغير الواعية اجتمعت وشكلت أولا خلية، ثم جاءت الذرات نفسها بطريقة أو بأخرى بالكائنات الحية والبشر. ولنفكر

الآن: إننا حينما نجمع عناصر مثل الكربون والفسفور والأزوت والبوتاسيوم وهى المفردات الأساسية في بنية الكيان الحي، فإنه تتشكل كومة. ومهما مرت كومة الذرات هذه بأي من العمليات، فإنها لا يمكن أن تشكل كائنا حيا واحدا. ولنجر تجربة في هذا الصدد إذا ما شئتم ، ولنتناول بالبحث والاستقصاء، باسم التطوريين وتحت عنوان "المعادلة الداروينية"، الزعم الذي ينافحون عنه في الأصل، إلا أنهم لا يستطيعون أن يجهروا به: فليضع التطوريون كميات وفيرة من عناصر مثل الفسفور والأزوت والكربون والأوكسجين والحديد والماغنسيوم وهي العناصر الي تتشكل منها

بنية الكائن الحي، داخل أعداد هائلة من البراميل العظيمة. وليضيفوا حتى إلى هذه البراميل ما يرون أنه من الضروري وجوده داخل هذا المزيج من مواد لا توجد حتى في الظروف الطبيعية، وليفعموا هذا المزيج بقدر ما يشاؤون من الأحماض الأمينية، والبروتين (احتمال تشكل الوحدة الواحدة منه تصادفيا بنسبة ١٠ قوة ٩٥٠). وليمدوا هذا المزيج بالحرارة والرطوبة بالنسبة التي

يرونها مناسبة، وليخفقوه ما شاؤوا من الأجهزة المتطورة، وليقيضوا على رأس هذه البراميل صفوة علماء العالم، ولينتظر هؤلاء الخبراء في مكانهم هذا وبشكل مستمر مليارات، بل تريليونات السنين بالتناوب من الأب إلى الابن، ومن جيل إلى جيل، ولتكن لهم مطلق الحرية في أن يستخدموا كافة ما يعتقدون في ضرورة وجوده من الظروف من أجل تشكل الكائن الحي. إنهم مهما فعلوا، ليس مقدورهم بالطبع أن يخرجوا كائنا حيا من تلك البراميل. ولا يتأتى لهم أن يأتوا بواحدة من الزرافات أو الأسود أو النحل أو عصافير الكناريا أو البلابل أو الببغاوات أو الخيل أو حيتان يونس أو الورود أو زهور الأوركيد أو الزنابق أو زهور القرنفل أو الموز أو البرتقال أو التمر أو الطماطم أو الشمام أو البطيخ أو التين أو الزيتون أو العنب أو الخوخ أو الطواويس أو طيور الدراج أو الفراشات مختلفة الألوان وملايين من الأنواع الحية من مثل هؤلاء، بل ليس بوسعهم أن يأتوا ولو بخلية من هذه الكائنات الحية التي أحصينا عددا منها، لا بواحدة منها كاملة الخلق. جملة ما نبغي قوله هو أن الذرات غير الواعية ليس بوسعها أن تجتمع فتشكل خلية حية، ولا تستطيع أن تتخذ قرارا جديدا من بعد فتنقسم الخلية نصفين، ثم تتخذ قرارات أخرى تباعا فتأتي بكيان العلماء الذين اخترعوا المجهر الإليكتروني، ممن يراقبون بنية الخلية ذاتها فيما بعد تحت المجهر. إن الخلية تدب فيها الحياة فقط بالخلق المعجز لله عز وجل. أما نظرية التطور التي تزعم عكس هذا، فهي سفسطة تتنافى تماما مع العقل والمنطق. وإن إعمال الفكر ولو قليلا في المزاعم الي طرحها التطوريون، ليظهر جلاء هذه الحقيقة مثلما في النموذج الوارد أعلاه.

التقنية الموجودة في العين والأذن

أما الموضوع الآخر الذي لم تستطع نظرية التطور أن تأتي له بتفسير جازم، فهو جودة الإدراك الفائقة الموجودة في العين والأذن. وقبل الولوج إلى الموضو ع المتعلق بالعين، نود أن نجيب بإيجاز عن سؤال هو: كيف تبصر العين ؟ إن الأشعة المنبعثة من جسم ما، تسقط بشكل عكسي على شبكية العين، وتقوم الخلايا الموجودة هنالك بتحويل هذه الأشعة إلى إشارات كهربية، تصل إلى نقطة تسمى مركز الإبصار موجودة بالجزء الخلفي للمخ. وهذه الإشارات الكهربية، بعد مجموعة من العمليات يتم التقاطها كصورة في هذا المركز الكائن في المخ، وبعد هذه المعلومة فلنفكر: إن المخ محجوب عن الضوء، بمعنى أن داخل المخ ظلاما دامسا، ولا يتأتى للضوء أن ينفذ إلى حيث يوجد المخ. والموضع الذي يسمى مركز الإبصار موضع حالك الظلمة ليس الضوء ببالغه أصلا، ولعله مظلم بدرجة لم نصادفها قط. إلا أنكم في هذه الظلمة الحالكة تشاهدون عالما مضيئا متوهجا. فضلا عن كونه منظرا على درجة من النقاء والجودة تعجز حتى تقنية القرن الحادي والعشرين رغم كل الإمكانيات أن تأتي بمثلها . انظروا مثلا إلى الكتاب الذي بين أيديكم الآن، وانظروا إلى أيديكم الي تمسك الكتاب، ثم ارفعوا رأسكم وانظروا حولكم، أرأيتم منظرا هذا النقاء والجودة في أي موضع آخر؟ إن شاشة أكثر أجهزة التلفاز تطورا والتي تنتجها شركة أجهزة التلفاز الأولى على مستوى العالم، لا يمكن أن تمنحكم صورة بهذا القدر من النقاء. ومنذ مائة عام وآلاف المهندسين يسعون للوصول إلى هذا النقاء ، ومن ثم تشيد المصانع والمؤسسات العملاقة، وتجرى الأبحاث، ويتم تطوير الخطط والتصميمات، ولتنظروا ثانية إلى شاشة التلفاز، وفي اللحظة ذاتها إلى الكتاب الذي بين أيديكم، فسوف ترون أن هناك فرقا شاسعا في النقاء والجودة. فضلا أن شاشة التلفاز تبدي لكم صورة ثنائية الأبعاد، في حين أنكم تتابعون مناظر ثلاثية الأبعاد ذات عمق. ومنذ سنوات طوال يسعى عشرات الآلاف من المهندسين لتصنيع شاشات جهاز تلفاز تعطي صورة ثلاثية الأبعاد، والوصول إلى جودة رؤية العين. نعم لقد أمكنهم تصميم نظام تلفاز ثلاثي الأبعاد، غير أنه ليس في الإمكان رؤيته ثلاثي الأبعاد دون ارتداء النظارة. ومع أن هذه الأبعاد الثلاثة اصطناعية، فالجهة الخلفية تظل عكرة، أما الجهة الأمامية فتبدو وكأنها صورة من ورق. ولا يتشكل أبدا منظر في جودة ونقاء المنظر الذي تراه العين. ويحدث بالطبع أن تضيع الصورة في الكاميرا والتلفاز. وها هم التطوريون يزعمون أن آلية الإبصار في العين والتي تظهر هذا

المنظر الذي يتسم بالجودة والنقاء، إنما تشكلت بمحض المصادفة . والآن إذا ما قال أحد لكم إن التلفاز الموجود في حجرتكم، إنما قد تشكل نتيجه مصادفات، وأن الذرات تجمعت وجاءت بالجهاز الذي يشكل هذه الصورة، ماذا تعتقدون فيه؟! كيف لذرات غير واعية أن تصنع ما لم يتأت لآلاف الأشخاص مجتمعين أن يصنعوه ؟! إن الآلة الي تشكل منظرا هو أكثر بدائية مما تراه العين، لو أنها لا تتشكل مصادفة، فإنه من الواضح للغاية أن العين والمنظر الذي تراه بدورهما لن يتشكلا محض مصادفة، والحال كذلك بالنسبة للأذن. فالأذن الخارجية تجمع الأصوات المحيطة بواسطة صوان الأذن، وتقوم بتوصيلها إلى الأذن الوسطى، لتقوم هى الأخرى بتقوية الذبذبات الصوتية ونقلها إلى الأذن الداخلية، لتقوم بدورها بتحويل هذه الذبذبات إلى إشارات كهربية، وإرسالها إلى المخ. وعملية السمع أيضا كما هو الشأن في عملية الإبصار تتم في مركز السمع الموجود في المخ. والوضع الذي في العين يسري كذلك على الأذن. بمعنى أن المخ محجوب كذلك عن الصوت مثلما هو محجوب عن الضوء، فالصوت لا ينفذ، وعليه فإنه مهما بلغت شدة الضجيج خارج المخ، فإن داخله ساكن تمام السكون. ورغم هذا فإن أنقى الأصوات تلتقط في المخ، ولو أنكم تسمعون

سيمفونيات أوركسترا في مخكم الذي لا ينفذ إليه الصوت، فإنكم تشعرون بكل صخب أحد الأوساط المزدحمة، وإذا ما قيس مستوى الصوت الذي بداخل المخ باستخدام جهاز حساس في تلك اللحظة، فسيتضح أنه يطبق عليه السكون التام. وعلى نحو ما استخدمت التقنية أملا في الحصول على صورة نقية، فإن المساعي نفسها تتواصل منذ عشرات السنين بالنسبة كذلك للصوت. وتعد

أجهزة تسجيل الصوت وأشرطة الكاسيت وكثير من الأجهزة الإليكترونية، والأنظمة الموسيقية الي تلتقط الصوت، بعض ثمار هذه المساعي، ولكن على الرغم من كل التقنيات، وآلاف المهندسين والخبراء العاملين حقلها، لم يتأت الوصول إلى صوت بنقاء وجودة الصوت الذي تلتقطه الأذن. وتأملوا أجود أشرطة الكاسيت الي تنتجها كبرى شركات الأنظمة الموسيقية، فحينما يسجل الصوت، حتما يضيع شطر منه، أو يحدث تشوش بالطبع ولو قليلا، أو أنه حينما تقومون بتشغيل شريط الكاسيت فإنكم لا بد أن تسمعوا له صريرا قبل أن تبدأ الموسيقى. في حين أن الأصوات التي من نتاج التقنية الموجودة بالجسم الإنسان تتسم بأقصى درجات النقاء، ولا تشوبها شائبة. ولا تلتقط أذن إنسان أبدا الصوت بشكل به صرير أو تشويش. وأيا ما كانت طبيعة الصوت فإنها تلتقطه بشكل كامل ونقي. وهذا الوضع لا يزال على ذات الكيفية منذ أن خلق الإنسان وإلى يومنا هذا. وإلى الآن ليس ثمة جهاز بصري أو صوتي من صنع بني الإنسان يلتقط الصورة والصوت بشكل حساس وناجح مثل العين والأذن. وفيما عدا هذا كله، فإنه ثمة حقيقة عظيمة للغاية في عملية الإبصار والسمع.

لمن تعود حاسة الإبصار والسمع داخل المخ ؟

من ذا الذي بداخل المخ يشاهد عالما مضيئا ملونا، ويسمع السيمفونيات وزقزقة العصافير، ويتنسم عبير الورود؟ إن التنبيهات الآتية من عيني الإنسان وأذنيه وأنفه تمضي إلى المخ في صورة إشارة كهربية. وإنكم لتطالعون تفصيلات كثيرة في كتب علم الأحياء والطبيعة والكيمياء الحيوية، بيد أنكم لا يمكن أن تصادفوا في أي موضع قط أهم حقيقة ينطوي عليها هذا الموضوع ألا وهى: من ذا الذي بالمخ يتلقى هذه الأشارات الكهربية ويدركها على أنها صورة وصوت ورائحة وإحساس، إن ثمة حاسة توجد بداخل المخ تلتقط هذا كله دون حاجة إلى عين أو أذن أو أنف، لمن تعود هذه الحاسة، بالطبع لا تعود على ما يشكل المخ من أعصاب وطبقات دهنية وخلايا عصبية. وهكذا لهذا السبب ليس .بمقدور الماديين الداروينيين ممن يظنون أن كل شيء ليس سوى مادة، أن يجيبوا على هذه التساؤلات، لأن هذه الحاسة إنما هي الروح الي خلقها المولى عز وجل. فهي لا تحتاج إلى عين حتى ترى الصورة، ولا أذن حتى تسمع الصوت. وعلاوة على هذا كله، فهي ليست بحاجة إلى مخ كيما تفكر. إن كل امرئ يطالع هذه الحقيقة العلمية الجلية، عليه أن يفكر في الله عز وجل الذي جمع مكان حالك الظلمة داخل المخ يقدر بعدة سنتيمترات مكعبة، الكائنات كافة بصورة ثلاثية الأبعاد ذات ألوان وظلال وضياء، ويخشاه ويلوذ به.

عقيدة مادية

إن ما تناولناه إلى الآن بالبحث والتدقيق ليظهر أن نظرية التطور ما هي إلا زعم يتعارض بوضوح مع الاكتشافات العلمية، ويجافي زعم النظرية فيما يتعلق بأصل الحياة المنطق العلمي. فليس لأية آلية تطور قط طرحتها النظرية أي تأثير تطوري. وتكشف الحفريات أن الكائنات الحية لم تمر بمراحل بينية تلك الي تستوجبها النظرية. وفي هذه الحالة يتعين تنحية نظرية التطور جانبا باعتبارها فكرة مجافية للعلم، لا سيما وأن كثيرا من الأفكار الي ظهرت على مدار التاريخ، مثل فكرة أن الأرض هي مركز الكون، قد حذفت من أجندة العلم. في حين أن نظرية التطور يتشبث بها وبإصرار في هذه الأجندة، حتى إنه من الناس من يسعى لإظهار أي انتقاد موجه إلى النظرية وكأنه هجوم على العلم ! لم هذا إذن؟! إن السبب في هذا الوضع إنما هو تكون عقيدة جازمة لنظرية التطور لا يمكن النكوص عنها بالنسبة إلى بعض الأوساط، وتخلص هذه الأوساط إخلاصا أعمى للفلسفة المادية، وتتبنى الداروينية كذلك لأنها التفسير المادي الوحيد للطبيعة الذي يمكن الإتيان به. وأحيانا يعترفون صراحة بهذا، ويعترف ريتشارد لونتين (Richard Lewontin)— عالم الوراثة الشهير جامعة هارفرد وفي الوقت ذاته تطوري بارز، بأنه "مادي في المقام الأول، ثم عالم في المقام الذي يليه"، إذ يقول: "إن لنا إيمانا بالمادية، وهو إيمان استباقي (اعتنق سلفا، وافترضت صحته). والشيء الذي يدفعنا إلى الإتيان بتفسير مادي للعالم، ليس هو أصول العلم وقواعده، بل على العكس من ذلك فإننا بسبب من إخلاصنا سلفا للمادية نختلق أصولا ومفاهيم بحثية تأتي بتفسير مادي للعالم، ونظرا إلى كون المادية صحيحة صحة مطلقة، فإننا لا يمكن أن نسمح بدخول تفسير إلهي إلى الساحة[28] . وتعد هذه الكلمات اعترافات صريحة بأن الداروينية مولود يحيا في سبيل الإخلاص للفلسفة المادية، وهذا المولود يفترض أنه ما من وجود قط سوى المادة. ولهذا السبب يعتقدون أن المادة الجامدة عديمة الوعي إنما خلقت الحياة. ويذهبون إلى أن ملايين الأنواع الحية المختلفة مثل الطيور والأسماك والزرافات والنمور والحشرات والأشجار والأزهار وحيتان

البال والبشر إنما تشكلت من داخل المادة الجامدة وبالتفاعلات الحادثة داخل المادة ذاتها؛ أي بالمطر الساقط، والبرق الخاطف، أما في حقيقة الأمر فإن هذا يتنافى مع العقل والمنطق على السواء، بيد أن الداروينيين يستمرئون المنافحة عن هذا الرأي بغية "عدم دخول تفسير إلهي إلى الساحة" على حد تعبيرهم. أما من لا ينظرون إلى أصل الكائنات الحية وفي أذهاهم حكم مادي مسبق، فسوف يدركون هذه الحقيقة الجلية. والكائنات الحية كافة إنما هي من صنع خالق ذي قوة وعلم وعقل معجز، إنه الله الذي خلق الكون كله من العدم، ونظمه بشكل لا تشوبه شائبة أو قصور، وخلق الكائنات الحية كافة وصورها.

إن نظرية التطور هي أشد السحر تأثيرا في تاريخ العالم

يتعين هنا أن نوضح أن أيما إنسان يعمل عقله ومنطقه دون أحكام مسبقة ودون الوقوع تحت تأثير أي أيديولوجية، سيدرك بسهولة ويسر أن نظرية التطور التي تذكرنا بخرافات المجتمعات الي عاشت بمنأى عن العلم والحضارة، ليست سوى زعم يستحيل تصديقه. وعلى النحو المتقدم تبيانه، فإن من يؤمنون بنظرية التطور يعتقدون أن الأساتذة الذين يفكرون ويعقلون ويخترعون، والطلاب الجامعيين و العلماء مثل إينستين هوبل (Einstein Hubble)، والفنانين مثل فرانك سيناترا (Frank Sinatra) وتشارلتون هيستون (Charlton Heston)، يضاف إليهم كائنات مثل الغزلان وأشجار الليمون وزهور القرنفل، سوف يخرجون مع مرور الزمان من مزيج من كثير من الذرات والجزئيات والمواد غير الحية التي تملء برميلا عظيما. لا سيما وأن من يؤمنون بهذا الخرف هم علماء وأساتذة وأناس على قدر من الثقافة والتعليم، ولهذا السبب فإن استخدام تعبير "أشد السحر تأثيرا في تاريخ العالم" بالنسبة إلى نظرية التطور سيكون استخداما في محله. إذ إنه ليس في تاريخ العالم اعتقاد أو زعم آخر سلب عقول البشر بمثل هذه الدرجة وحرمهم من فرصة التفكير بالعقل والمنطق، وكأنه أسدل ستارا أمام أعينهم، حال دون أن يروا الحقيقة التي كانت واضحة بجلاء، وإن هذا لغفلة وعدم بصيرة لا يستسيغها عقل مثلها كمثل عبادة بعض القبائل الإفريقية للطوطم وعبادة أهل سبأ للشمس وعبادة قوم إبراهيم عليه السلام للأوثان، التي كانوا يصنعوها بأيديهم، وعبادة قوم عليه السلام للعجل الذي صنعوه من ذهب. وهذا الوضع في حقيقته إنما هو حماقة أشار إليها الله تعالى في القرآن الكريم. وينبئنا المولى عز وجل في كثير من آياته بأن من الناس من سيستغلق عليه الفهم ويتردون إلى حال يعجزون فيه عن رؤية الحقائق، ومن بين هذه الآيات قوله تعالى: (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) (البقرة: ٧٦). وقوله أيضا : (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هو أضل أولئك هم الغافلون) (الأعراف: ١٧٩). أما في سورة الحجر فيخبرنا الله عز وجل بأن أولئك الناس قد سحروا بحيث أنهم لن يؤمنوا حتى ولو رأوا المعجزات، إذ يقول سبحانه وتعالى: (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) (احجر: ١٤-١٥) وإن امتداد هذا السحر بشكل مؤثر على قطاعات عريضة من الناس هذا القدر، وابتعاد الناس عن الحقائق هذه الدرجة، وبقاء هذا السحر منذ ١٥٠ عاما، لهو وضع مثير للحيرة والدهشة بدرجة لا يمكن شرحها بكلمات، لأنه من الممكن أن يستسيغ العقل اعتقاد شخص أو عدة أشخاص لسيناريوهات مستحيلة ومزاعم حافلة بالخرف والهراء والأمور غير المنطقية، إلا أن اعتقاد الكثيرين من البشر في كافة أنحاء العالم بأن الذرات اللاوعية والجامدة قد اجتمعت بقرار فجائي، فأتت بالكون الذي نراه يعمل بنظام لا تشوبه شائبة، ويكشف عن تنظيم غير عادي ونظام متقن غاية الاتقان، وبكوكب الأرض الذي يختص بكافة السمات المناسبة للحياة، وبكائنات حية مزودة بأنظمة معقدة تفوق الحصر، ليس له من تفسير سوى أنه سحر. كما أن الله عز وجل ينبئنا من خلال تلك الحادثة التي وقعت بين موسى عليه السلام وفرعون، بأن بعض الأشخاص ممن ينافحون عن الفلسفة الإلحادية، يؤثرون على الناس بما يصنعونه من السحر. فحينما قص موسى عليه السلام نبأ الدين الحق على فرعون، طلب فرعون إلى موسى أن يلتقي بسحرته في موضع يحتشد فيه الناس، وحينما التقى موسى السحرة أمرهم أن يبادروا هم باستعراض مهاراتهم. والآية الي تسرد هذه الحادثة تقول: "قال ألقوا فلما القوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم"(الأعراف:١١٦). وعلى نحو ما تبدى تمكن سحرة فرعون بما صنعوه من خدع أن يسحروا الناس جميعا باستثناء موسى والذين آمنوا به. إلا أن البرهان الذي ألقاه موسى في مواجهة ما ألقاه هؤلاء على حد التعبير الوارد بالقرآن الكريم "تلقف ما يافكون"، أي أنه أبطل تأثيره، يقول تعالى: (وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون

فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين) (الأعراف: ١١٧ ــ ١١٩) وعلى نحو ما ورد في الآيات، و مع إدراك أن ما فعله هؤلاء الأشخاص الذين سحروا الناس من قبل وأثروا عليهم إنما هو إفك، باؤوا بالذل والضعة. وأولئك الذين يؤمنون بمزاعم خرقاء إلى أقصى درجة تحت غلاف من العلم وبتأثير السحر في عصرنا الراهن، وينذرون حياتهم للدفاع عنها، فسوف يسقط شأنهم ويذلوا ما لم يتخلوا عن هذه المزاعم، وذلك حينما تظهر الحقيقة بجلاء بكامل معانيها، و"يبطل تأثير السحر".

ويشرح مالكوم موجيريدج (Malcolm Muggeridge) الذي ظل ينافح عن نظرية التطور حتى ناهز الستين من عمره، وكان فيلسوفا ملحدا، ولكنه أدرك الحقائق من بعد الوضع الذي ستتردى إليه نظرية التطور في المستقبل القريب قائلا: "إنني أنا نفسي صرت مقتنعا بأن نظرية التطور ستكون إحدى مواد المزاح الموجودة بكتب تاريخ المستقبل لا سيما في المجالات التي طبقت فيها. وسيتلقى جيل المستقبل بالدهشة والحيرة اعتناق فرضية متهرئة يكتنفها الغموض بسذاجة لا يصدقها عقل[29]" . وهذا المستقبل ليس ببعيد، بل على العكس من ذلك، فإن البشر في المستقبل القريب للغاية، سيدركون أن المصادفات ليست إلها وسوف

يتم الاعتراف بأن نظرية التطور إنما هي أكبر خدعة وأشد أنواع السحر في تاريخ العالم. وسرعان ما بدأ هذا السحر الشديد ينحسر عن الناس في شتى أنحاء الأرض، وبات الكثيرون ممن وقفوا على سر خدعة التطور، يتساءلون بدهشة وحيرة كيف انطلت هذه الخدعة عليهم.

قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم البقرة: ٣٢